الباب الثامن

الوصايا

أ- تمهيد

الوصايا جنسٌ من أجناس الأدب التربويّ، له في تاريخ الأدب العربيّ جذورٌ جاهليةٌ عريقة. وجوهر هذا الجنس التوجيهُ لا الإمتاعُ فهو يحرص على أن ينقل إلى الصغار عن الكبار ما تواضعَ عليه الآباءُ والأجداد من قيم وشيم، وأخلاق ومُثُل، وأعراف ومفاهيم،ليبغِّضَ إليهم الرذائلَ، وينشِّئهُم على الفضائل. وصُنَّاعُ الوصايا يلخِّصون لمن يوصونهم ما أفضت إليه حَيَواتُهم المديدة، وتجاربُهم العديدة من نتائج، ويقفونهم على ما نفحتهم به الأحداثُ من حِكَم لكي يُريحوهم من عناء المكابدة. ويضعوا أقدامهم على الجَدَد الواضح، ويجنّبوهم العِثارَ والسيرَ في بُنيَّات الطريق.

وربَّما انطوتْ وصايا الجاهليِّين على مفاهيمَ قبلية، تشدُّ الفردَ إلى القبيلة لكي تضمن استمرار الترابط الاجتماعي وفق التقاليد التي توارثها المجتمعُ القبليّ، وحدَّدتها طبيعةُ الحياة البدوية المؤمنة بأن البقاء للأقوى، وبأن الفردَ، ولو أُوتي شجاعةَ عنترةَ، وشكيمةَ الشنفرى، وكرمَ عروة، وحكمة زهير، عاجزٌ عن العيش خارجَ الإِطارِ القبليِّ.

فلمَّا بزغَ الإسلامُ ضربَ المفاهيمَ الجاهليَّةَ القديمةَ على محكِّ العقيدة الجديدة، فأقرَّ منها ما أقرَّ، وأنكرَ ما أنكر، وهذَّب ما هذَّب، وأضافَ إلى

obeikandl.com

الموروث قِيماً أخرى، وسَّعَتْ نطاقَ الروابط الاجتماعية، وأخرجَت الفكر العربيَّ من شرنقة القبلية المُغْلقة إلى أُفُق الوحدة القومية المفتوح على الأمم المجاورة، ومن حَلَبة التنازع والتصارع في سبيل البقاء إلى التعاون على البرِّ والتقوى، إذْ حوَّلت الاقتتالَ إلى جهاد، والاصطراعَ في سبيل البقاء إلى تعاون وإخاء للرقيِّ بالمجتمع العربيّ الإسلاميِّ إلى مستوى أفضلَ وأكملَ. فكيف تجلَّى هذا التطوُّرُ في الوصايا؟

تجلّى هذا التطور تجلِّياً فكرياً في المضمون، وتجلِّياً فنياً في الشكل:

أمَّا الفكريُّ فإنه تبدَّى فيما تمثِّله الوصايا من قيم إسلامية، وسَّعت آفاقها، ورفدتها بمفاهيم جديدة، فانشعبتْ إلى أنواع وأغراض لم تعرفها الوصايا الجاهلية، أو عرفتها قبل أن تكتمل وتستوي على سوقها، إذْ عني بعضُها بالدين، وبعضُها بالسياسة، واهتمَّت طائفة منها بأحوال المجتمع، وأخرى بشؤون الإدارة، وثالثة بالجهاد. وبقيت هذه الأنواعُ بعد تنوُّعها وتفرُّعها تدور حول محورها التربويّ، وترمي إلى التوجيه والإصلاح.

أمَّا التجلِّي الفني لتطوُّر الوصايا، فقد تمثل فيما حقَّقته نصوصُها من اكتمال الشكل، إذْ ارتقت من الكلام المسموع الذي يعرض له النسيان إلى النصّ المكتوب وَفْقَ رسوم أخذت تتكاملُ حتى وهبت الوصايا سماتٍ تميزها من أجناس الأدب الأخرى.

أوَّلُ هذه الرسوم ابتداؤُها بالبسملة لمباركتها، والثاني تسميةُ مَنْ وصَّى، ومَنْ وُصِّي به أو له، والثالثُ كتابةُ الوصية موزَّعة على بنود، والرابعُ إنهاؤها بالحمدلة، والخامسُ ختمها بخاتم الموصِّي لتوثيقها. وقد يضاف إليها اسمُ الكاتب واسمُ الشاهد إمعاناً في التحقيق والتدقيق، ودَرْءِ الشبهات.

على هذا النحو المتكامل العناصر، وبهذه الصورة الواضحة القسمات ورث العصرُ الأمويُّ فنَّ الوصايا، فلم يزِدْه غيرَ الصقل في الشكل، والاتساع في الأنواع. ولهذا اكتفينا في هذا الكتاب بإجمال ما فصَّلنا فيه الكلام على رسوم الوصايا في كتابنا «النثر في عصر النبوة والخلافة الراشدة» وقصرنا الدرس على موضوعات الوصايا وأنواعها. فما أهمُّ هذه الموضوعات والأنواع؟

ب- موضوعات الوصايا في العصر الأموي

للإجابة عن السؤال السابق إجابةً واقعيّةً لا مثاليّة يحسنُ بنا أن نتذكَّرَ الفتنةَ التي سبقت العصر الأمويَّ والأحزاب التي اصطرعت، والفتوحات التي اتَّسعت، ونشرت راياتِ العرب ما بين الصين وفرنسة، والثروةَ التي تدفَّقت على الشام من الأقاليم، والمجونَ الذي زحف إلى الحجاز، والحضارةَ التي خالطت البداوة، وبنية الأمة التي تغيَّرت بعدما تحضَّرت، والنقائضَ التي تجاورت، فتحاورت أو تناحرت.

بعد أن نتذكر هذه الوقائع نستطيع أن نقول: لقد تعايش في العصر الأمويّ الترفُ والشظف، واختلطت في مكَّة والمدينة أصواتُ الغناء بأصداء القرَّاء. وتعاور الخلافةَ حِلْمُ معاوية بن أبي سفيان وحَزْمُ عبد الملك بن مروان، ثم شَظَفُ عمر بن عبد العزيز وسَرَفُ الوليد بن يزيد. وشهد الناس تزلُّف الشعراء وتعفُّف الفقهاء، وسمعوا مواعظَ الحسن البصري في المساجد، ومباذلَ عمر بن أبي ربيعة في المجالس، وقارنوا تودد ابن شهاب الزهري إلى الخلفاء بإعراض أبي حازم الأعرج عنهم وعنه.

إن اصطراع الأضداد في كلِّ عصر وفي كلّ مصر يبثُّ في الأدب عامَّة، لا في الوصايا خاصَّة أفكاراً تجدِّدُه، وروحاً تُحْييه، فيزدهرُ وينتشرُ، ويحرصُ أربابُه على أن يخلِّدوا ما جدَّدوا، أو ينشروا ما ابتكروا بنقله من السَّلَف إلى الخَلَف، ومن الآباء إلى الأبناء لينشأ عليه الحَفَدة، والوصايا هي الحاملة الناقلة.

فالعلماءُ والفقهاء والوعاظ وأهل الذكر يعظون مَن يرافقون وهم أحياء، ويوصون مَنْ يفارقون وهم خارجون من الدنيا، لأن الله ألقى على كواهلهم تبعات الدعوة والهداية، فَيُبدعون الوصيَّةَ الوعظية الدينية.

والأجدادُ والآباء يعتقدون أنهم عرفوا من أمور الحياة، وكشفوا من أسرارها ما لم يعرف الأبناء، وما لم يكشف الحفداء، فينقلون إلى البنين والحفدة ما عرفوا وما كشفوا بالوصايا الاجتماعية التربوية.

والخلفاءُ والأمراء بعد أن يتمرَّسوا بمكائد السياسة، وآفاتِ الثورات والفتن، وبعد أن يحتملوا أعباءَ الحكم يودُّون لو ينقلون نتائجَ ما تمرَّسوا به، وخبرةَ ما احتملوا من المسؤولية إلى أبنائهم، فلا يورثونهم ولايةَ العهد وحكم

الشعب وحسب، وإنما يورثونهم الولايةَ محوطة بالرعاية، وسياسةَ الرعيَّة مشفوعة بوصية، فيبتكرون الوصايا السياسية.

وولاةُ الأقاليم، وجُباةُ الخراج والمكوس، وعُمالُ الصدقات، وأصحابُ البريد، وكتَّابُ الدواوين يصقلون المواهب بالتجارب، وينمون القدرة بالخبرة، فلا يحتكرون ما يختبرون، بل يحرصون على أن يعلّموا مَنْ يخلفهم ما تعلَّموا، ولا سيّما من يتوسّمون فيه الجدارة بالإدارة، والطموح إلى المناصب، فيصنعون الوصايا الإدارية.

وقادةُ الجيوش المرابطون في الثغور، البارعون في فنون القتال من كرٍّ وفرٍّ وهجوم وحصار، وأصحابُ الشُّرَط الموكَّلون بحماية الأمن وملاحقة القتلة واللصوص، هؤلاء وأولئك يرغبون في أن يُعَرِّفوا ورثَتهم ما عرفوا، وأن يُثقِّفوهم بما ثقِفوا، فيُفرغون معارفَهم وثقافتهم في الوصايا العسكرية.

وتوخياً للدقة ينبغي أن نقيِّدَ ما ذكرنا بقيدين:

أوَّلُهما أن خمسةَ الموضوعات التي ذكرناها كانت جُلَّ الأفكار التي تناولتْها الوصايا في العصر الأموي، لا كلَّها، وأن بين ما أغفلنا وصايا، قد يتَّصلُ مضمونُها بواحدٍ من هذه الموضوعات بعضَ الاتصال، ووصايا قد تنفصلُ عنها كلَّ الانفصال، وانفصالُها يُضيفُ إلى الخمسة المذكورة سادساً أو أكثر.

والقيدُ الثاني أن بين الوصايا ما انطوى على موضوعين أو ثلاثة، لأن اشتباكَ الأحداث في الواقع وإفضاءَ تكاليف الحياة وشؤونها بعضِها إلى بعض قد ينجمُ عنهما اشتباكٌ واختلاط في موضوعات الوصايا، وتداخلٌ وتكامل في أغراضها. والتقسيمُ الذي زعمناه ليس أكثر من تصنيف تقريبيّ متكلَّف، غايته تيسيرُ الدراسة، لا تصوير الحقيقة.

جـ- أنواع الوصايا

ربَّما كان تقسيمُ الوصايا إلى أنواع أشقَّ على الدارس من توزيع القصائد الجاهلية وتصنيفها وَفْقَ أغراض الشعر المعروفة من غزل وطلل وهجاء ورثاء. فالتقسيم يُبْنى على التباين والاختلاف، وفي الوصايا والقصائد من التداخل مثل

ما فيها من التباين، ومن الائتلاف عِدْلُ ما فيها من الاختلاف. فإن أبيْتَ إلّا التقسيم فلا تمنِّيَنَّ نفسَك بالوصول إلى أنواع متمايزة كلَّ التمايز، واقنع من التوزيع بالتقريب، ومن التفريع بالتغليب.

إن من يرسل طرفه في وصايا العصر الأموي يجد أحياناً أن الإدارة قد تلابس السياسة، وأن التربية قد تخالط الوعظ، وأن القضايا الاجتماعية قد تُحاطُ بأحكام الدين، وأن الوصية الحربية قد تبدأ من الجهاد في الدنيا، وتنتهي إلى الثواب في الآخرة، فيحارُ الدارسُ حينئذٍ كيف يصنِّفُ المتداخل، وكيف يُجزِّىء المتكامل، ثم يُضطرُّ أن يقنع من كثيرٍ مرجوٍّ بيسيرٍ ممكن.

وهبه تكلف فيما صنف، فإنه سيجد فروع الوصايا التي فرعها خارجة من نوع واحد، وبعبارة أدقّ، سيجد كلَّ الوصايا موسومةً بسمة الوصية الدينية. وعلَّةُ ذلك أنه لما كان المجتمع العربي في العصر الأموي وريث العهد النبوي وتبيع الخلافة الراشدة، فإنه بقي - على الرغم من فاشية الغناء وجائحة الترف - إسلامي الطابع، يصبغ الوصايا كلها على اختلاف أنواعها وأفكارها بصبغة دينية، في المضمون وفي الشكل، أي في الأفكار والرسوم على سواء. وإنْ شئتَ أن تشفعَ التعليلَ بالتمثيل فقُلْ: لقد بقيت الروح الدينيةُ ترقرقُ في نصوص الوصايا كافّة كما يترقرقُ الدمُ في أوصال الجسم كافَّةً، فهو النسغُ الذي به يحيا الجسد، والألق الذي به تتوهَّج النفس.

١ - الوصية الدينية

إذا كنا قد زعمنا أن الوصية الدينية أمُّ الوصايا، وأنَّها أورثت بناتِها سماتِها، فإن زعمنا لا يعني أنَّها أورثتهن كلَّ ما تملك، وبقيتْ عُطْلاً بلا حِلية تميزها منهن. لقد احتفظت الوصيةُ الدينيةُ بالعراقة والأصالة، ووهبتهن الاهتداءَ والاقتداءَ، وتتجلَّى أصالتها في أن كلَّ فكرة من أفكارها بعضٌ من الإسلام: عقيدتهِ وشريعتهِ، وأوامرهِ وزواجرهِ، وثوابه وعِقابه.

حينما حضرت الوفاةُ أبا بكرة نُفَيْعَ بنَ الحارث الثقفيَّ [ت: ٥٢هـ] أمْلَى على الكاتب وصية تضمَّنَتْ أكثر الأركان التي يقومُ عليها الإيمانُ، ومنها وحدانيةُ الله، وصدقُ النبوة، والتصديقُ باليوم الآخر، والاستسلامُ لقضاء الله، ورجاءُ الرحمة، وخوفُ العِقاب، أضِفْ إلى ذلك كلِّه تعظيمَ

الكعبة، لأنها قبلةُ الإسلام. قال أبو بكرة[١]: «اكتبوا وصيتي.فكتبَ الكاتبُ: هذا ما أوصى به نُفَيعٌ الحبشيُّ مولى رسول الله ﷺ، وهو يشهد أن الله ربُّه، وأن محمداً ﷺ نبيُّه، وأن الإسلام دينُه، وأن الكعبة قبلتُه، وأنه يرجو من الله ما يرجوه المعترفون بتوحيده، المُقِرُّون بربوبيته، الموقنون بوعده ووعيده، الخائفون لعذابه، المشفقون من عقابه، المؤمِّلون لرحمته. إنَّهُ أرحمُ الراحمين".

ويُخيَّل إلينا أن الوصيةَ مبتورةٌ، وأن الرواة ذكروا منها ما له علاقةٌ بالمُوصي، وأغفلوا ما سوى ذلك. فقد كان لنفيع عشرون من البنين والبنات، فكيف يُمْلي وصيةً، لا يخاطب فيها ذكراً، ولا ينصح لأنثى؟ قد تقول: إنّ إيمانه العميق حمله على أن يجعل وصيته خالصةً للدين من أوشاب الدنيا، وتظاهر رأيك بأنه حين أراد أن يُسلم- والقولُ للذهبي-[٢]: «تدلَّى في حصار الطائف ببكرة، وفرَّ إلى النبي ﷺ. وأسلم عنده» وبأنه كان على الموت أحرصَ منه على الحياة، حتى إنه حينما مرض «عرض عليه بنوه أن يأتوه بطبيب، فأبى. فلمَّا نزل به الموتُ قال: أين طبيبكُم ليردَّه إنْ كان صادقاً؟».

ومهما يكنْ حظُّ هذه الوصية من الفكر الديني فإنَّ افتقارَها إلى رسوم الوصايا التي ذكرناها قبل يُضعفُ انتماءَها إلى هذه الأسرة الأدبية. وخيرٌ منها وصيتُه لمعاوية بن أبي سفيان، ونصُّها[٣]: «أعهدُ إليك يا أميرَ المؤمنين أن تنظر لنفسك ورعيتك، وتعملَ صالحاً. فإنك قد تقلَّدْتَ عظيماً: خلافةَ الله في خلقهِ. فاتّقِ الله، فإن لك غايةً لا تعدوها، ومِنْ ورائك طالبٌ حثيثٌ، فأَوشك أن تبلغَ المدى، فيلحَق الطالبُ، فتصير إلى مَنْ يسألُك عمّا كنتَ فيه، وهو أعلمُ به منك. وإنَّما هي محاسبةٌ وتوقيف. فلا تُؤْثِرَنَّ على رضاءِ الله عزَّ وجلَّ شيئاً».

وأعجبُ ما يُعجبُك في هذه الوصية وعظُها بلا مَلَق ولا نفاق مَنْ تعوَّد أن يأمرَ ولا يُؤْمَر، ويَزجرَ ولا يُزْجَر، وتذكيرُه الموتَ الذي يطلبهُ، وهو مُدْرِكُه، لا محالةَ، ويومَ الحسابِ الذي يرقبُه، وهو بالغُه، ولا ريب.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ٢٦/ ١٨٤.
(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٨.
(٣) تاريخ الطبري ٦/ ٩٧.

ولزياد ابن أبيه [ت: ٥٣هـ] في الوصية الدينية منزلة رفيعة، تعدلُ منزلته في فنِّ الخطابة وأدب الترسُّل، حتى إن عبدَ الملك بن مروان- وهو مَنْ هو في رجاحة العقل ورهافةِ الذوق- كتبَ وصيةً من وصايا زياد الدينية، وأمرَ الناس بحفظها وتدبُّرِ معانيها، وإليك شطرها الثاني(١):

«إن الله جعلَ لعباده عقولاً، عاقبَهم بها على معصيتِه، وأثابهم على طاعته. والناسُ بين مُحْسنٍ بنعمة الله عليه، ومُسيءٍ بخذلان الله إياه. ولله النعمةُ على المحسن، والحجةُ على المسيء.فما أحقَّ مَنْ تمَّت نعمةُ الله عليه في نفسه، ورأى العبرةَ في غيره بأن يضعَ الدنيا بحيثُ وضعها الله، فيعطي ما عليه منها، ولا يتكثَّر ممَّا ليس له فيها.

إنَّ الدنيا دارٌ لا سبيلَ إلى بقائها،ولا بُدَّ من لقاءِ الله. فأحذِّركُم الله الذي حذَّركم نفسَه، وأُوصيكم بتعجيل ما أخَّرت العَجَزةُ، حتى صاروا إلى دارٍ ليس لهم منها أَوْبَةٌ،ولا يقدرون فيها على تَوْبَة. وأنا أستخلفُ الله عليكم، وأستخلفُه منكم».

إذا نظرت فيما أغفَلْنا من وصية زياد هذه،فوجدتها تبدأ بالشهادتين، وتدعو إلى التقوى، وتذكَّرت ماكان تناساه صاحبُها يومَ خطب خطبته البتراء بلا بسملة ولا حمدلة، أدركت- ولعل هذا الإدراك هو الذي أرضى عنها عبد الملك - أن ضعف الإنسان أمام الموت يُجرِّده من جبروته، ويردُّه إنساناً سويَّاً، يحتكم إلى الدين والعقل بعدما كان يحتكم إلى الدنيا والسيف. في هذه الوصية أيقن زياد، وهو خارج من دنياه وسلطانه، أن الله وهب الإنسان العقل ليحمِّلَه التبعةَ، وأرخى له عنانَ الحرية في الدنيا، ليسأله عن مَسْلكه الدنيوي في الآخرة، وجعل حياته، مهما تطُلْ، مرحلةَ اختيار، فليتزوَّدْ قبل أن يرحل، وليتبْ قبل أن يُسأل.

وإذا كان أبو بكرة قد ضمَّن وصيَّته أركانَ الإيمان، فإن عبد الله بن عباس [ت:٦٨هـ] شفعَ الإيمانَ بالطاعة، والعقيدةَ بالعبادة، فأوصى جندبَ بنَ عبد الله البُجَلي [ت: ٧٠هـ] أن يؤمن بوحدانية الله، وحقيقةِ الموت، وقرب الرحيل عن الدنيا، والزهد في المال، والإخلاصِ في العمل، فجاءت وصيتُه إلى السلوك العملي الواقعيّ أقرب منها إلى الإيمان النظريّ المثاليّ، وفي كلٍّ خيرٌ.

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٨٧، ورواها ابن عساكر في مختصر تاريخ دمشق ٩/ ٨٩ باختلاف.

قال جندب لابن عباس: أوصني. قال[١]: «أوصيكَ بتوحيد الله، والعمل له، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة. فإن كلَّ خير أنت آتيه بعد هذه الخصال منك مقبولٌ، وإلى الله مرفوعٌ. يا جندب، إنك لن تزدادَ من يومك إلّا قرباً، فصلِّ صلاةَ مودِّع، وأصبِحْ في الدنيا كأنك غريبٌ مسافر، فإنك من أهل القبور. وابْكِ على ذنبك، وتُبْ من خطيئتك، ولتكن الدنيا أهونَ عليك من شِسْع[٢] نعلِك، وكأنْ قد فارقتها، وصرتَ إلى عدلِ الله. ولن تنتفعَ بما خلَّفْتَ، ولن ينفعَك إلّا عملُك».

لم يأتمرْ جندبٌ بما أمره به ابنُ عباس وحسبُ، وإنَّما صدع به، وأوصى به غيرَه، وشفعَ الدعوة إلى الإيمان القلبيّ بالدعوة إلى التطبيق العمليّ، إذْ أوصى مَن استوصاه أن يدفعَ البلاء بالعطاء، ويفتديَ الدين بالدنيا لأن ثراءَ الدنيا بائد، وثراءَ الآخرة خالد. قال الإمام الذهبي:

«قيل لجندب بن عبد الله البجلي: أَوْصِنا. قال[٣]: أُوصيكم بتقوى الله، وأوصيكم بالقرآن، فإنه نورٌ بالليل المظلم، وهدىً بالنهار، فاعملوا به على ماكان من جهد وفاقة. فإن عرَضَ بلاءٌ فقدِّمْ مالك دون دينك، فإن تجاوز البلاءُ. فقدِّم مالك ونفسك دون دينك، فإن المخروبَ مَنْ خُرِب دينُه، والمسلوب من سُلِب دينُه. واعلمْ أنه لا فاقةَ بعد الجنة، ولا غنى بعد النار».

ولعلَّك لاحظت أن الوصايا الدينية السابقة تمحَّضت للدين، فلم يَشُبْها شَوْبٌ من إدارة أو سياسة. وعلةُ هذه التمحُّض أن الموصِّي والموصَّى - عدا زياد ابن أبيه- كانا في الوصايا كلِّها من الفقهاء الأتقياء، والعُبَّاد الزهَّاد. أمّا حينما يوصي الخليفةُ وليَّ عهده فإنه، مهما يُؤْتَ من الورع والزهد، لا يستطيعُ أن يجعل وصيته خالصةً للعبادة والزهادة، لأن أهمَّ ما يهمُّ الناسَ من دين الحاكم حكمُه لا صومُه، وعدالتُه لا صلاتُه، فعثرةُ المحكوم تؤذي العاثر وحدَه، وعثرة الحاكم تؤذي الرعية كلَّها.

أوصى عمرُ بن عبد العزيز وليَّ عهده يزيدَ بن عبد الملك، فقال[٤]:

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٢/ ٣٢٦.

(٢) أحد سيور النعل الذي يدخل بين الإصبعين.

(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٧٤، المخروب: المهدوم، الفاقة: الفقر والحاجة.

(٤) الوثائق السياسية/ ٤٥١، الصَّرعة: الهلاك والموت.

«أمَّا بعدُ، فاتَّق يا يزيد الصَّرعةَ بعد الغفلة حين لا تُقال العَثْرةُ، ولا تقدر على الرجعة. إنَّك تتركُ ما تتركُ لمن لا يحمدُك، وتصيرُ إلى مَنْ لا يعذرُك. والسلام».

٢- الوصية الاجتماعية

إذا قرنت الوصيةَ الاجتماعية بالوصية الدينية في العصر الجاهلي، وجدتَ الاجتماعيةَ أعمق غوْراً، وأمدَّ جذراً، وأكثر نصوصاً، وأوفر أفكاراً، وأرسخَ في العقل والقلب، إذْ أصابت حظّاً من التطوُّر والازدهار، تجلَّى فيما أوصتْ به أمامةُ بنتُ الحارث ابنتها أمَّ إياس، وهي تزفُّها إلى زوجها، وفيما أوصى به الحارثُ بن كعب بنيه قبل أن يرحلَ عن الدنيا.

وعلَّةُ العُمقِ في الاجتماعية، والضحالةِ في الدينية طوالَ العصر الجاهليّ أن الوثنيةَ لم تضعْ بين أيدي الجاهليين تصوُّراً دينياً، يفسِّر لهم الحياةَ والكونَ تفسيراً، يحرصُ الآباء على نقله إلى الأبناء، ويصنعون منه الوصية الدينية القيّمة. لكنها تمخَّضت عن مشكلات وتكاليف، وحفلتْ بفضائل ورذائل، واصطرعتْ فيها مناقبُ ومثالبُ حملت الآباءَ والأمَّهاتِ على توصية الأبناء والبنات بما يتوسَّمون فيه اجتلابَ الخير، واجتناب الشرِّ.

ولـمَّا كان الإسلامُ حريصاً على أن يتمِّم مكارمَ الأخلاق، فإنه لم ينسخ الوصيةَ الاجتماعية بالوصية الدينية،بل أرسل فيها مِقصَّ التربية والتوجيه وَفْقَ التصوّر الأخلاقي الإنساني الذي حرص على تبنّيه، فشذَّبَ من شوكها ما نشز ووخز، وسقى من زهرها ما أمتع، ومن ثمرها ما أينع، فجاءتْ وصاياه الاجتماعيةُ أنقى من سابقاتها وأنبل. وعلى هذا المِنوال من النقاء والنبل نسجَ الأمويون وصاياهم.

يُطلُّ عليك نقاءُ الوصية الاجتماعية ونبلُها ممَّا أوصى به سعيدُ بن العاص [ت: ٥٩هـ] بنيه حينما حضرته الوفاة. وسعيدٌ هذا كان على حَظٍّ عظيم من الكرم والمروءة. أماّ كرمُه فقد حمله على أن يوصي ورثته بأن يُجْروا على أصحابه بعد وفاته ما كان يُجريه عليهم في حياته، لئلَّا يغيبَ عنهم رِفدُه إذا غاب جسده، وبأن يبادروا إلى المعروف قبل أن يُسْأَلوه لكيلا يُحْرجوا السائل بالحياء من الاستعصاء، فإن العطاءَ قبل الطلب شرفٌ للمسؤول، وصَوْنٌ للسائل. وأمَّا المروءة فقد تجلَّت في معنى قيّم، قلَّما تقع على مثله عند الأجواد، وهو أن

للآخذ فضلاً على المُعْطي، لأنه آثره على سواه حينما توسَّم فيه الخير، وجعله مظنَّة السخاء، ومُسْتراد النُّجعة. قال سعيد بن العاص[١]:

«لا يفقدْ أصحابي بعدَ موتي غيرَ وجهي. أَجْرُوا عليهم ما كنتُ أُجري، واصنعوا إليهم ما كنتُ أصنعُ بهم. واكفوهم مُؤْنةَ الطلب، فإن الرجل إذا طلب الحاجةَ اضطربتْ أركانُه، وارتعدت فرائصُه مخافةَ أن يُرَدَّ عنها. والله لرجلٌ بات يتململُ على فراشه رآكم مَوْضِعاً لحاجته أعظمُ منَّةً عليكم منكم بما تُعْطونه».

وتناولَ حبرُ الأمة عبد الله بنُ عباس في وصية من وصاياه الاجتماعية جانباً آخر من جوانب التواصُل الإنساني، فأفرغ فيه ما أُوتي من خبرة: تناول أدبَ الحديث، وضوابطَ المجادلة، وطرائقَ النقاش بعدما أمضى حياته في المحاورة والتوجيه. لقد نصح للإنسان ألَّا يخوض فيما لا يُحسنه، وألَّا يقحم نفسه في حديث لا شأن له فيه، وألَّا يُطْلق لسانه بالقول حتى يُديرَ الفكرةَ في العقل. فالإنسانُ مرهونٌ باللسان، مسؤولٌ عمَّا يقول ويفعل، وصَّى ابنُ عبَّاس وبرة المسلي، فقال[٢]:

«لا تكلَّمنَّ فيما لا يَعْنيك، فإنه فضلٌ، ولا آمَنُ عليك فيه الوِزْرَ. ولا تكلَّمنَّ فيما يَعْنيك حتى ترى له موضعاً، فربَّ متكلّم بالحقّ قد تكلَّم بالحق في غير موضعه فَعَنِتَ. ولا تُمارينَّ سفيهاً ولا حليماً، فإن الحليمَ يَقْليك، والسفيهَ يُرْديك.. ولا تذكرنَّ أخاك إذا توارى عنك إلَّا بمثل الذي تحبُّ أن يذكرك به إذا أنت تواريت عنه. واعملْ عملَ رجل يعلمُ أنه مَجْزِيٌّ بالإحسان، مأخوذٌ بالإجرام».

٣- الوصية السياسية

للحكم الوراثي - سواءٌ أكان ملكيةً دنيوية أم خلافةً دينية - يسيرٌ من المحاسن، وكثيرٌ من المساوئ: من محاسنه أنه يحوطُ الدولة بسور من الاستقرار والاستمرار، يُجنِّبُها القلاقلَ والفتن. ومن مساوئه أنه يرفع على العرش القادرَ والعاجز، والعالمَ والجاهل، فيضطرُّ القادرُ إلى تقوية العاجز قبل أن يُلْقيَ على عاتقه تبعاتِ الحكم، والعالمُ إلى أن يبصِّر الجاهلَ بأسرار

---

(١) غرر الخصائص الواضحة/ ٢٤٧.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ١٢/ ٣٢٦، الوزر: الذنب، السفيه: الجاهل ضد الحليم.

السياسة قبل أن يرحل عن الدنيا. وعن تقوية العاجز، وتَبْصِرة الجاهل تنجُم الوصية السياسية والوصية الإدارية.

وفي المرحلة الأولى من عمر الدولة - وهي مرحلةُ الإنشاء والإرساء - تُصبح الوصيةُ السياسية مَطْلباً ضروريَّاً، تشتدُّ الحاجةُ إليه، لأن كلَّ نظام مُسْتحدث يحرصُ أشدَّ الحرص على أن ينهجَ في السياسة نهجاً جديداً، يُسَوِّغ به ارتقاءَه سدَّة السلطة، لكي يقنعَ الرعيةَ بأن ما يُتوقَّعُ خيرٌ ممَّا وقع، وبأن المستقبل المرجُوَّ أفضلُ من الماضي الآفل.

ولو أن الخلافةَ الراشدة أرسَتْ في تاريخ العرب السياسي نظاماً واضحَ السمات، يضمنُ انتقالَ الحكم من السَّلف إلى الخَلَف وَفْقَ منهاجٍ رسميّ ثابت لَمَا استطاع الأمويون أن يُحَوِّلوا الحكمَ من الشورى إلى الوراثة، ومن الخلافة في الشكل إلى الملكية في المضمون. لقد اكتفت الخلافةُ الراشدة بالمبدأ، ولم تترجمْ هذا المبدأ بمجلس تشريعيّ، وسلطة قضائية يكفلان اختيار الخليفة. ولهذا استطاع معاويةُ أن ينقل الحكمَ من الشورى إلى الوراثة. ولكنه حفاظاً على هيبة الدولة وطاعة الأمة التزم ما التزمه الراشدون من الحكم بالكتاب والسنة فأمسكتْ عنه الرعية. وجَعَل الحكمَ وراثياً، فالتفَّ حولَه بنو أمية.

يُخَيَّل إلينا أنَّ معاويةَ- وهو مَنْ هو في الدهاء - كان يعلمُ عِلْمَ اليقين أن ابنه يزيدَ أصغرُ من التبعة الكبرى التي ألقتْها عليه البيعةُ، لكنه لم يكن يعترفُ للناس بما يعرفُ من ولده، بل يحاولُ أن يعلِّمه ما يجهلُ، لعلَّه يكتسبُ بالخبرة ما حُرِم بالفطرة. ولذلك ظلَّ يتعهَّدُه بالتدريب والنُّصح طوالَ حياته. فلمَّا ساورته المنيةُ، وأراد أن يودِّع الدنيا بوصية يُوصي بها وليَّ العهد، والوليُّ غائب، دعا اثنين من خلصائه، وهما : الضحاكُ بن قيس الفهري، ومسلمُ بن عقبة المرّيّ، وأمَرهما أن يبلِّغا الولد وصية أبيه.

تُعَدُّ هذه الوصية وثيقةً سياسية خطيرة، أفرغ فيها معاويةُ خلاصةَ تمرُّسه بالسياسة والياً، ثم خليفة طوال مدة مديدة من حياته. وحلَّل أوضاع ثلاثة الأقاليم التي لا قيامَ للدولة الأموية إلا بها، وهي الحجازُ والعراق والشام. ورأى رأيه في ثلاثة الزعماء الكبار من قريش الذين لا رابعَ لهم في منافسة يزيد، وهم : الحسين بن علي رضي الله عنهما، وعبدُ الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير.

أمَّا الأقاليم فلكلٍّ منها خصيصةٌ، والخصيصةُ تملي على يزيد السياسةَ التي تلائم كل إقليم، ولا تصلح لسواه. فالحجازُ مهدُ النبوة، وموطن الصحابة والتابعين من أشراف العرب، ولا سيما جلة قريش، فلا بُدَّ من تعظيم الحجاز وأهله. والعراق مكمنُ الفتن، ومربضُ الخطر، فعلى من يتولَّاه أن يشتدَّ ويلين، فيقمع المعارضة بالقوة، ويتألَّف القلوب باختيار الولاة الذين يرضى عنهم أهل الإقليم. والشام ظهيرُ الخلافة ونصيرها فعلى يزيد أن يجعلَه سندَه وعضدَه، وألَّا يسمح لجند الشام بمخالطة الشعوب الأخرى لئلا يتطبعوا بطباع المعارضين، فيمرُدوا ويثوروا. قال معاوية في وصيته ليزيد(١):

«انظر أهل الحجاز، فإنهم أهلُك، فأكرِمْ من قدم عليك منهم، وتعاهَدْ من غاب. وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزلَ عنهم كلَّ يوم عاملاً، فافعلْ، فإن عزل عامل أحبُّ إليَّ من أن تُشهر عليك مئةُ ألف سيف. وانظر أهل الشام، فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإنْ نابَكَ شيءٌ من عدوّك، فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فارْدُدْ أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم».

وفي الشطر الثاني من الرسالة درسَ معاويةُ ثلاثةَ الزعماء المنافسين دراسةً نفسية سياسية، خلاصتُها أن عبدَ الله بن عمر زاهدٌ عابد، شغله الدينُ عن الدنيا، فجانبُه مأمونٌ. والحسينُ بن علي - والرأيُ رأي معاوية- سريعُ الانقياد، وانقيادُه لأهل العراق سَيُرْديه، إن لم يُردِه ابنُ ملجم آخر كقاتل أبيه. لكن إكرامه ما دام حيّاً واجبٌ على يزيد لأنه سليلُ البيت النبوي. وابنُ الزبير - والرأي لمعاوية أيضاً - ماكرٌ غادرٌ، فعلى يزيدَ أن يتربَّص به، وأن يُحاذرَه ويُماكرَه، وأن يقدّم في معاملته المصالحةَ على المكافحة، والمخادَعة على المقارعة. قال معاوية:

«وإني لستُ أخافُ من قريش إلا ثلاثةً: الحسينَ بن علي، وعبدَ الله بن عمر، وعبدَ الله بن الزبير. فأمّا ابنُ عمر فرجلٌ وقَذَه الدينُ، فليس ملتمساً شيئاً قِبَلَك. وأمَّا الحسينُ بن علي فإنه رجلٌ خفيف، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتلَ أباه، وخذلَ أخاه. وإنَّ له رحماً ماسّةً، وحقّاً عظيماً، وقرابة من محمد ﷺ. ولا أظنُّ أهلَ العراق تاركيه، حتى يُخرجوه، فإن قدرتَ عليه، فاصفحْ عنه.

(١) الوثائق السياسية/ ١٤٥، العيبة: موضع السّر والثقة، وقذه: غلبه.

فإني لو كنت صاحبَه عفوتُ عنه. وأمَّا ابنُ الزبير فإنه خَبٌّ[١] ضَبٌّ[٢]، فإذا شَخَص لك، فالبدْ[٣] له، إلَّا أن يلتمسَ منك صُلْحاً، فإن فعل فاقبلْ، واحقنْ[٤] دماءَ قومك، ما استطعت».

لو صدعَ الابنُ بما أمره به أبوه، فغسلَ الأضغانَ بالإحسان، واستلَّ السخائمَ بالمكارم لجنَّب نفسَه والأمَّة في زمانه، والتاريخَ في كلِّ زمانٍ بعد زمانه، فجيعةً مُرَوِّعةً، ما كانتْ لتكونَ لو تُرِكَ القَوْلُ الفَصْلُ في كربلاء لشعرةِ معاويةَ لا لسيف يزيد. غير أن الوصيةَ فرعٌ، والبيعة أصلٌ، وصلاحُ الفرع لا يُصْلح الأصل.

وحينما آلت الخلافةُ إلى مروان بن الحكم ولَّى ابنَه عبدَ العزيز حكمَ مصر، وشفعَ الولايةَ بوصية، تضمَّنَتْ أربعَ نصائح: أُولاها أن يشتريَ اجتهاد العمَّال بالمال، فيجزِلَه ويُعجِّلَه. والثانيةُ أن يلتزم الصدقَ في القول، والإخلاصَ في العمل. والثالثة أن يحكمَ بالعقل والشورى لا بالهوى والتفرُّد، وبالروية لا بالغضب. والرابعة أن يختار سُمَّاره وبطانته من الحكماء الأتقياء الشرفاء ليكونوا أهلاً لمجالسته، وخزائن لأسراره. قال مروان[٥]:

«أرسلْ حكيماً ولا توصه، أيْ بُنيَّ، انظرْ إلى عمَّالك، فإن كان لهم عندك حقٌّ غدوةً، فلا تؤخِّرْه إلى عشية. وإن كان لهم عشيةً فلا تؤخره إلى غدوة. وأَعْطِهم حقوقَهم عند محلِّها، تستوجبْ بذلك الطاعةَ منهم. وإيَّاك أن يظهر عليك لرعيتك منك كذبٌ، فإنهم إن ظهر لهم منك كذبٌ لم يصدِّقوك في الحق. واستشرْ جلساءَك وأهل العلم، فإن لم يستبنْ لك فاكتب إليَّ يأتِك رأيٌ فيه إن شاء الله تعالى. وإن كان بك غضبٌ على أحد من رعيتك فلا تؤاخذْه به عند سَوْرة الغضب، واحبسْ عنه عقوبته حتى يسكنَ غضبُك، ثم يكون منك ما يكون، وأنت ساكنُ الغضب، منطفئُ الجمرة. فإنَّ أول مَنْ جعل السجن كان حليماً ذا أناة. ثم انظرْ أهلَ الحسب والدين والمروءة، فليكونوا أصحابَكَ

(١) خداع ومراوغ.
(٢) ذو عداوة وحقد.
(٣) اصمد له.
(٤) حُل دون سفكها وإراقتها.
(٥) الوثائق السياسية/ ٢٤٩.

وجلساءَك، ثم اعرفْ منازلَهم منك على غير استرسالٍ ولا انقباض. أقولُ هذا وأستخلفُ الله عليك».

وعن القوس نفسها نزع عبد الملك بن مروان فيما أوصى به ابنه الوليد، حينما ولاه أمر دمشق، كأنه بهذه الولاية يأخذه بالدربة على السياسة في عهده، ويعده بالصحبة للخلافة من بعده. ولهذا جاءت الوصية مفصلة لا مجملة، تسع من السياسة أموراً لا تسعها الوصيتان السابقتان:

أولُ هذه الأمور أن يحفظ الحاكم اللاحقُ مجدَ الحاكم السابق لترسخَ الدولةُ وتشمخ. والثاني أن يتجنَّب معاقبة الأشراف. والثالث أن يتألَّف قلوب الناس، ولو كانوا قبلُ أنصارَ غيره. والرابع ألَّا يعزل إلَّا العَجَزة والخَوَنة،ليطمئنَّ أنصاره. والخامسُ ألَّا يُجالسَ إلَّا ذوي العُقول من أشراف الكهول. والسادسُ ألَّا يبدِّدَ مال الأمة في غير حقّ. والسابعُ ألَّا يخاطب الساسة إلَّا برسالة مدقَّقة، أو رسولٍ أريب. وإليك نصَّ الرسالة(١):

«يا بُنيّ، لأبيك صنائعُ قد رسخت في المجد أصولُها، وأورقت في العُلا فروعُها، وأنشر عند الناس ذكرُها. فلا تهدمنَّ ما قد شرف لك بناؤه، وأضاء لك ضياؤه. فكفى من سوء رأي المرء، وقبيح أثره، وضَعَةِ نفسه أن يهدم ما قد شُيِّدَ له من فضيلةِ البناء، ورفيع الثناء.

إيَّاك وأعراضَ الأحرار، فإن الحرَّ لا يُرضيه عن عرضه عِوَضٌ. واجتنب العقوبة في الأبشار، فإنه وتْرٌ مطلوبٌ، وعار باق. ولا يمنعْك من ذي فضل، سبقت إليه صنيعةُ غيرك أن تصطنعه، فإن صنيعة ذي الفضل شكرٌ تستوجبُه، وكنزٌ تدَّخره.

واستعملْ أهلَ الفضل دون أهل الهُون، ولا تعزِلْ إلّا عن عجز أو خيانة.

وليكنْ جُلَساؤُك غيرَ أسنانك، فإن الشبابَ شُعبةٌ من الجنون.

وإن نازعتْك نفسُك على أخذ شيءٍ من المال، فلا يكنْ خصمُك إلَّا بيتَ المال. وليكنْ رسولُك فيما بيني وبينك مَنْ يفهم عني وعنك. وإذا كتبتَ كتاباً

(١) عين الأدب والسياسة/ ١٧٠، صنائع: أعمال، أنشر: أحيا، ضعة: ذل وهوان، الأبشار: ج بشرة: ظاهر الجِلد وكأنما أراد الأجساد، أو الجِلْد، وتر: ثأر، الاصطناع: الاتخاذ والاختيار، الهون: الخزي والذل.

فأكثر النظرَ فيه، فإن الكتاب موضعُ عقل الرجل، ورسوله موضعُ عقله. وأستودعُك الله العظيم».

من مقارنة الرسائل السياسية الأموية بعضِها ببعض يتبيَّنُ لك أنها تتقاربُ في حصافة الرأي، وبُعْد المرمى، واستشراف المستقبل، والحرصِ على استقرار الدولة، واستمرارِ السياسة التي رسم خطوطَها معاويةُ. وجوهرُها إيثارُ اللطف على العنف، والتألُّف على التشدُّد، والثواب على العقاب، واصطناعُ الأنصار على قمع الخصوم. غير أن اللاحقة أنضجُ من السابقة فكراً، وأكمل إنشاءً، وأدقُّ تعبيراً، وأجملُ بياناً، كأنها تترجم ما تقضي به سنة التطور.

٤- الوصية الإدارية

إن تمييز الوصية الإدارية من الوصية السياسية أشقُّ على الدارس من الرُّنُوِّ إلى وجوه التوائم للظفر ببعض القسمات التي تميِّز الأخَ من أخيه. وما ندري أوفِّقْنا أم أخْفَقْنا فيما تكلَّفنا حينما ركبنا هذا المركبَ الصعب في كتابنا (النثر في عصر النبوة والخلافة الراشدة). وهَبْنا لم نُصِبْ إلا يسيراً من الصواب، فإن الفصلَ بين الوصيتين أَعْوَدُ على القارئ بالنفع من الجمع.

ويمكن ههنا أن نوجز الأساسَ الذي نحتكمُ إليه في فصل الإدارة عن السياسة بمبدأ بسيط، يسهل علينا أن نتصوَّره نظريّاً، ويصعب أن نُصوِّره عمليَّاً، وهو أن الوصية السياسية ترسم للموصَّى منهاجاً عامًّا ينهجه في حكم الدولة، يخططه الموصِّي، لينفذه الموصَّى، ويضمِّنه صفوْةَ ما احتلب من أخلافِ السياسة، وزُبْدةَ ما مخضَ. وإن أبَيْتَ إلّا التحليل والتمثيل، ومقارنة القديم بالحديث، فقلْ:

الوصية السياسيةُ تشبه الدستور، والإداريةُ تضارع القوانين، فالدستورُ عامٌّ كليُّ النظرة، لا تتغيَّرُ موادُّه بتغيُّر الحكومات، والقوانينُ قد تتغيَّر بتغير الخليفة الذي يوجِّه أو الأمير الذي ينفِّذ، والخليفةُ قد يخوِّل أمراءَ الأقاليم أن يشرعوا. فالوصيةُ الإدارية إذن هي هذه الآراءُ المحلية التي تشبه التشريعات الفرعية التي تصدرها المجالسُ البلدية، أو وزارة الإدارة المحلية، أو هي التوجيهات التي يتلقاها الأمير من الخليفة ليدير شؤون ولايته على النحو الذي يرضي أمير المؤمنين.

حينما ولَّى عمر بن عبد العزيز [ت: ١٠١هـ] هلال بن عبد الأعلى إمارة

قنسرين أوصاه وصية قصيرة، رسم له فيها المبادئ التي يتهدى بها في إدارة الإمارة: أولُ هذه المبادئ الاحتكامُ إلى الكتاب والسنة على أساس الورع والتقوى. والثاني التزامُ العدل والمساواة. والثالث استفتاءُ الخليفة فيما لا يُحْسن الأميرُ أن يُفْتيَ فيه. والرابعُ أن حريةَ الوالي في الإدارة مقيَّدة لا مطلقةٌ، وزمامُ القيد مشدودٌ إلى يد الخليفة، ومعْنى هذا التقييد أن تكون الإدارة الإقليمية صادرةً عن السياسة العامة. والخامسُ أنَّ توجيهاتِ الخليفة لا تُنفَّذُ إذا عارضت المصلحةَ العامَّة. ولمَّا كان الأميرُ أدرى بأحوال إمارته من الخليفة فإن هذا يعني أن الإدارة قد تصحِّح السياسة، وأنَّ الإمارة قد تعلو الخلافة، لأن الحقَّ والعدلَ فوق المناصب. والخلاصة أن عمر يُعيدُ إلى الشورى منزلتها، ولا يُفقد السلطةَ هيبتها بوصية من أربعة أسطر حينما يقول:

«اتَّقِ الله يكفِك، وخفِ الله يَخَفْ منك سواه، وآثر الحقَّ، واعمل به. إذا ورد عليك مني أمرٌ وافق الحقَّ فأنفذْه، وإذا ورد عليك مني أمرٌ، رأيت الحقَّ في غيره فاكتبْ إلينا فيه، فنعقب ما رأيت. فإن كان ما رأيتَ حقّاً أمرناك، فأنفذتَه. وإن كان الحقُّ في غيره كتبنا إليك، فانتهيتَ إليه»[1].

ومن الولاة الدهاة، والقادة الشجعان عمرُ بن هبيرة [ت: نحو ١١٠هـ] ولَّاه يزيدُ بن عبد الملك العراق وخراسان، فأناب عنه في إدارة خراسان مسلمَ بن سعيد، وشيَّعه بوصية تنمُّ على مهارة في الإدارة، ونصح له بأن يستعينَ على ما نُدب له بثلاثةِ رجال: الحاجبِ الكيِّس، وصاحبِ الشرطة اليقظ، والعاملِ الأعجمي الذي يُختار من أهل الأرض التي يَجبيها، لكي يتلقَّى عنه الذمَّ إن أَجْحَف، ويعود عليه بالحمد إن أنصف. قال ابن هبيرة[2]:

«أُوصيك بثلاثةٍ: حاجبِك، فإنه وجهُك الذي به تلقى الناسَ. إنْ أحسن فأنت المحسنُ، وإن أساء فأنت المسيءُ. وصاحبِ شرطتِك، فإنه سوطُك وسيفُك حيث وضعتهما، فقدِّر ضِعَتَهما عمَّالَ القَدْرِ. قال: وما عمَّالُ القَدْر؟ قال: أن تختار من كلِّ كورة رجالاً لعملك، فإنْ أصابوا، فهو الذي أردْتَ. وإن أخطؤوا، فهم المُخطئون، وأنت المصيبُ».

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ٢٧/ ١٢٦.

(٢) العقد الفريد ١/ ١٩، ضعتهما: وضعهما، القدر: الشرف والحسب، عمالَ القدر: نصب على نزع الخافض أي: وضعهما في عمال، الكورة: المدينة، القرية.

٥- الوصية العسكرية

لم يعش العصرُ الأموي- وعمرُه تسعون سنة - سنةً واحدة، أُغْمِدت فيها السيوفُ، وسُوِّمت الخيلُ، وأريح الجندُ، وأخلد القومُ إلى السكينة. بل كانتْ السيوفُ أبداً مسلولةً، والخيل دائماً مسرجة، والجيوشُ مستنفرة. وهذه الأحداثُ الدامية المتوالية أنطقت الخلفاءَ والأمراء بوصايا عسكرية كثيرة، شيَّع بها الخلفاءُ قادةَ الجيوش الزاحفة إلى تخوم الروم، أو ودَّع بها الولاةُ مَنْ يندبونهم لإخماد الفتن، وذكرها الطبري وابن الأثير وغيرهما من رواة الأخبار مقرونةً بالأسباب التي أَمْلتها، والوقائع التي واكبتها،والنتائج التي أعقبتها.

وهذه الوصايا، على كثرتها، يمكن تقسيمُها قسمين: يضمُّ أولُهما النصوصَ المأثورة عن الخلفاء والأمراء الذين جيَّشوا جيوشَ الفتوح المجاهدة في سبيل الله. ويضمُّ ثانيهما النصوصَ التي رسم أصحابُها الخططَ لمن ندبوهم لقتال المارقين، وقمع الثورات، وملاحقةِ أصحابِ المطامح المتمرِّدين على بني أمية من وُلاتهم حيناً، ومن خصومهم في أكثر الأحيان.

مَنْ يستعرض وصايا القسم الأول يجد الكثرة الكاثرةَ منها أقربَ إلى الاعتدال منها إلى التشدُّد، وعلى السلامة أحرصَ منها على المغامرة، كأنَّ القصدَ منها الحثُّ على الدفاع لا على الهجوم، لصدِّ العدوّ لا الفتكِ به، وتثبيتِ الأقدام فيما فتح الله على الأمويين، لا وطء أرض أخرى، تصعب حمايتها، ولاجتماعِ الكلمة لا لتنازع المناصب.

كان معاوية بن أبي سفيان قد ولَّى الصائفة - وهي الحملةُ التي تحارب العدو في الصيف - سفيانَ بنَ عوف الغامديّ. فمضى إلى ما نُدب له. ثم حضرته الوفاة، وهو في الرباط، فاستخلفَ عبد الرحمن بنَ مسعود الفزاري، ووصّاه بما يلي[1]:

«قد استخلفتُك على الناس، فاتق الله، يجعل لك من أمرك مخرجاً، وأَرِدْ للمسلمين السلامة، واعلم أن قوماً على مثل حالكم لم يفقدوا أميرهم إلَّا اختلفوا لفقده، وانتشرعليهم أمرهم، وإن كان كثيراً عددُهم، ظاهراً جَلَدُهم. وإنَّ فتحاً على المسلمين كبيراً أن تقفل بهم ولم يُكْلَموا».

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٠/ ٢٤، انتشر: تفرّق، جلدهم: قوتهم، يكلموا: يجرحوا أو يصابوا بأذى.

وبالحكمةِ نفسِها الحريصةِ على دماء المسلمين أَوْصى عبدُ الملك بنُ مروان أحدَ قوَّاده، وهو يوجِّهُه إلى تخوم الروم وصيَّةً قصيرة، فيها من الحيطةِ والحذر فوقَ ما فيها من الرغبة في الظفر، حتى ليخيَّلُ إليك أن هذا الخليفة المهيبَ والدٌ يودِّعُ أولادَه، لا قائد يشجِّع أجنادَه، وأن حمايتهم من الأذى أحبُّ إليه من الفوز بالنصر. قال عبد الملك[١]:

«أنت تاجرُ الله لعباده، فكنْ كالمضارب الكيِّس الذي إن وجد ربحاً تجر، وإلَّا تحفَّظ برأس المال. ولا تطلب الغنيمةَ حتى تحرزَ السلامة. وكنْ من احتيالِك على عدوِّك أشدَّ حذراً من احتيالِ عدوِّك عليك».

لقد دأب الخلفاءُ الأمويون في وصاياهم العسكرية على أن يبثوا الروحَ الإنسانية النبيلة فيما أوصَوْا به قادتَهم طوالَ العصر الأموي. ولهذا لم يكن من المستغرب أن يحثُّوا القواد على الترفُّق بالأجناد، وأن يتجلَّى هذا الحثُّ فيما أوصى به عمرُ بن عبد العزيز قائدَه عمرَو بنَ قيس السكوني، وهو يولّيه قيادةَ الصائفة، فيقول[٢]:

«اقبلْ من مُحْسنهم، وتجاوزْ عن مُسيئهم. ولا تكنْ في أوَّلهم، فتُقتل، ولا في آخرهم، فتفشل، ولكنْ كُنْ وسطاً، حيث يُرَى مكانُك، ويُسمعُ صوتُك».

أرأيت كيف غلَّب عمر العفو على العقاب، والسلامة على الشجاعة؟ إنَّ في هذا التيّار الإنساني المترقرق في تضاعيف الوصايا العسكرية من الثقة والقوَّة فوق ما فيه من الخوف والضعف، وتعليلُه عندنا أن إحساس الخليفة بفداحة التبعة كان أقوى من طموحه إلى الاعتزاز بالنصر، ولهذا قدَّم سلامة الجند على بناء المجد.

وأغرب ما يستغربُه الباحثُ أنه حينما ينتقلُ من الوصايا المرتبطة بالجهاد الخارجيِّ إلى الوصايا المتَّصلة بالاقتتال الداخليّ يُفاجَأُ بما لم يكن يتوقع،

---

(١) الوثائق السياسية/ ٢٩٢، وفي البيان والتبيين ٢/ ١٠٩ لعبد الملك بن صالح يوصي ابنه وهو أمير سرية، وهي لعبد الملك بن مروان في العقد الفريد ونهاية الأرب، الكيّس: العاقل.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٦/ ١٠٨، تفشل: تضعف.

ويسوءه أن يجد القلوبَ تحقد، والأضغانَ تتفجَّر والوصايا تعنف، إذْ يحلُّ فيها التنمُّرُ للثأر محلَّ الإخلادِ إلى الصفح. وأسوأُ ما يسوءه في هذه الوصايا الغضوب أن يترامى المقتتلون بسهام الدين للفوز بمغانم الدنيا، فيتَّهم بعضُهم بعضاً بالفسوق والمروق، ويتقاذفون- وهم أبناءُ ملَّة واحدة وعبادُ معبودٍ واحد - بالتحقير والتكفير. وكلُّ فريق يزعمُ أنه وحده على الحقِّ، وسواه على الباطل.

جَيَّشَ المغيرةُ بن شعبة - وكان واليَ معاوية على الكوفة - جيشاً لمحاربة الخوارج، وشيَّع قائده معقلَ بن قيس بوصية، اتهم فيها الخوارج بالمروق من الدين، وأمره أن يستتيبهم قبل أن يُعْمِل فيهم السيف، فإن تابوا تاب عليهم، وألقى إليهم السَّلَمَ، وإنْ أبَوْا فالعقابُ جزُّ الرقاب. قال المغيرة[١]:

«يا معقلَ بنَ قيس، إني قد بعثتُ معك فرسانَ أهل المصر، أمرتُ بهم، فانتُخِبوا انتخاباً. فسِرْ إلى هذه العِصابة المارقة الذين فارقوا جماعَتَنا، وشهدوا علينا بالكفر، فَادْعُهم إلى التوبة، وإلى الدخول في الجماعة، فإنْ فعلوا، فاقبلْ منهم، واكفُفْ عنهم. وإن هم لم يفعلوا، فناجِزْهم، واستعنْ بالله عليهم».

حتى المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي رُوي فيه حديث[٢] يرميه بالكذب حملَ رايةَ الدين، وحارب غيره من المسلمين، إذْ أوصى قائدَه إبراهيم بن الأشتر أن ينقضَّ على جموع الأمويين انقضاض الصاعقة، وأن يتعجَّل في مقاتلتهم، فلا يفاوض ولا يساوم، لإيمانه القاطع بأنه ومن معه على هدى، وأنهم ومن جمعوا على ضلال، وإليك نصَّ الوصية[٣]:

«خَفِ الله في سرِّ أمرك وعلانيته، وعجِّل السيرَ. وإذا لقيتَ عدوَّك فناجزْهم ساعةَ تلقاهم. وإن لقيتَهم ليلاً، فاستطعت ألَّا تُصبح حتى تناجزَهم فافعلْ. وإنْ لقيتهم نهاراً، فلا تنتظر بهم الليل حتى تحاكمهم إلى الله».

قد تلتمس للمختار بعضَ الأعذار، فتقول: كان مغامراً طموحاً توَّاقاً إلى المكاسب والمناصب، فراح يتوسَّل إلى مطامحه بما أُتيح له من الوسائل السياسية والدينية والعسكرية، لكنك لا تجدُ عذراً ليزيد بنِ معاوية، وهو يحكم

(١) تاريخ الطبري ٦/ ١٠٩، ناجزهم: قاتلهم وحاربهم.
(٢) «في ثقيف كذَّابٌ ومُبير» وهو حديث صحيح، الجامع الصغير ٢/ ٦٦٦.
(٣) تاريخ الطبري ٧/ ١٤٠.

أكبر الدول في زمانه حينما تراه يسلك في الحجاز مسلك الجبارين، فيوصي قائده مسلم بن عقبة وصية تلطِّخ أمجادَ الأمويين بعارٍ لم يستطع أن يمحوَه من تاريخهم المجيد حزمُ عبد الملك، وفتوحُ الوليد، وعدلُ عمر.

في كلامنا على الوصية السياسية ذكرنا أن معاوية قال في آخر ما أوصى به ليزيد: «انظرْ أهلَ الحجاز، فإنهم أهلُك، فأكرمْ مَنْ قدِم عليك منهم، وتعاهَدْ من غاب». فهل صَدَعَ الولدُ بأمر الوالد؟ وبأيِّ شيء أكرم من قدم، وتعاهدَ من غاب؟

الوصيةُ التي زرعها لسانُ يزيد في أذن مسلم لم تكتفِ بالتنكُّر لوصية معاوية، وإنَّما جاوزت التنكُّر والإنكار إلى الجهر بالمخالفة، والمباهاة بتحكيم السفاهة في الحلم، والفهاهة في العلم، إذ زعم الموصي أن أباه أخطأَ في السياسة بموادعته الحجازيين، لأنَّ الموادعة أطمعتهم في العصيان. ونسيَ أنَّ قتلَه الحسينَ بنَ علي ﵄ هو الذي أثار عليه الأمة كلَّها لا أهلَ الحجاز عامَّة، ولا أهلَ المدينة خاصّة. هذه مخرقتهُ الأولى.

والمخرقةُ الثانية أنه جيَّش جيْشاً من عشرين ألفاً، وأمر قائده بأن يستبيحَ مدينةَ الرسول ﷺ ثلاثةَ أيام، وفي المدينة البقيَّةُ الباقية من جلَّة الصحابة، وكلُّهم شيخ كبير لا يُعامل بغير التوقير، وفيها صفوةُ التابعين ممن تربوا في أعين الصحابة، فأقبسوهم ما قبسوا من أنوار النبوة، وخلَّقوهم بأخلاقها.

وثالثة المخارق أنه شفَعَ الوصية الغضوبَ بأرجوزةٍ حقود، جاهليةِ الأفكار والعواطف، متسعِّرة الأضغان. والمنقبةُ الوحيدة التي لم تَقْوَ على أن تمحو مثالب المخارق هي الترفُّق بزين العابدين لزهده وورعه وعزوفه عن المطالبة بالخلافة. وإليك نصَّ الوصية كما نقلها ابنُ الأثير وكثيرٌ من المؤرخين:

خرج يزيدُ مشيِّعاً لجيشه، وأوصى قائدَه مسلم بن عقبة، فقال[1]:

«أنت أميُر الجيش، وإن حدث بك حدث، فاستخلفْ على الجيش الحصينَ بنَ نمير السكوني، فإذا وردتَ المدينةَ فادعُ الناس ثلاثاً، فإن أجابوك، وإلّا فقاتِلْهِم، فإن ظهرتَ عليهم فأبحْها ثلاثاً، فما كان بها من مالٍ أو دابَّة

(١) الوثائق السياسية/ ١٩٠، والكامل في التاريخ/ ٥٢٩.

أو سلاح أو طعام فهو للجند. فإذا مضَتْ الثلاثُ، فاكفُفْ عن الناس.واستوصِ بعليٍّ بن الحسين بن عليّ خيراً، أدْنِ مجلسه، فإنه لم يدخلْ في شيءٍ ممَّا دخل فيه الناس. واعلمْ أنك تُقْدم على قوم ذوي جهالةٍ واستطالة، قد أفسدهم حِلمُ أمير المؤمنين معاويةَ، وظنُّوا أن الأيدي لا تنالُهم، فلا تَرُدَّنَّ أهل الشام عمَّا أرادوه بهم».

«ثم أنشد يزيدُ والراياتُ تمرُّ، وقد علا نشَزاً من الأرض، وأحاطتْ به الخيولُ:

أبــلــغْ أبــا بــكــرٍ إذا الأمــرُ انــبــرى
وانـحـطَّـت الـرايـاتُ مـن وادي الـقـرى
عــشــرون ألــفــاً بــيــن كــهــلٍ وفــتــى
أجــمــعَ ســكــرانَ مــن الــقــوم تــرى؟
أم جـمـع يـقـظـانَ نـفـى عـنـه الـكـرى؟»

قد تعترض على ما تقدّم، فتقول: ألا يحقّ للراعي أن يؤدّب الرعية، وأهل المدينة شغبوا وَأُدِّبوا؟ وفي الردّ على هذا الاعتراض نقول: يمكن أن يكون التأديب بالترهيب لا باستباحة مدينة مقدسة. إنَّ أهل الشغب في كلِّ مدينة تمرُدُ، وهَيْجة تثورُ قلَّةٌ من كَثْرة، فلماذا تُؤْخَذُ الكثرةُ بجرائر القلَّة؟ ويعاقبُ المسالم بذنب المقاوم؟ ولـمَ لا يُكتفى بالحصار حتى يستسلم أهلُ السياسة، ويسلم العَجَزة والأطفالُ وأعمارُ الناس؟ وإذا استطاعَ الجندُ أن يجتاحوا، فعلامَ استباحوا بعدما اجتاحوا؟

عن هذه الأسئلة وأمثالها أجابَ القدماءُ قبل أن تُطرحَ عليهم، فأجمعوا على تسفيه يزيد، ولو كانوا من ذويه:

قال ابن الأثير[1]: «لما سمع عبد الملك بن مروان أنَّ يزيد قد سيَّر الجنود إلى المدينة قال: ليت السماءَ وقعت على الأرض».

وقال ابنُ الأثير أيضاً: «وقد أخطأ يزيدُ خطأً فاحشاً في قوله لمسلم بن عقبة أن يُبيحَ المدينة ثلاثة أيام.. وقد وقع في هذه الثلاثة أيام من المفاسد

(١) الكامل في التاريخ/ ٥٣٠.

العظيمة في المدينة النبوية ما لا يُحَدُّ ولا يوصف.. وقد أراد توطيد ملكه فعاقبه الله بنقيض قصده..فقصمه الله قاصمُ الجبابرة، وأخذه أخذَ عزيز مقتدر».
وقال الذهبي في ترجمة يزيد[1]:

«افتتحَ دولته بمقتل الشهيد الحسين، واختَتَمها بواقعةِ الحرّة، فمقَتَه الناس ولم يُبارَكْ في عمره، وخرجَ عليه غيرُ واحد بعد الحسين».

٦- الوصية التربوية

قد تكون الوصيةُ التربوية أحقَّ الوصايا بالعناية، وأجدرها بالدرس، لاتساع الأفق الإنساني الذي تجول فيه، ولأن الناس، على اختلاف أمصارِهم وأعصارهم يحتاجون إلى انتجاع مراتعها، والأخذ بمنافعها، والائتمار بما تحثُّ عليه من الشيم، والازدجار عمّا تنهى عنه من الرذائل. أضِفْ إلى ذلك أن فيها شكلاً من أشكال التواصل بين الأجيال، وصورةً من صور الحفاظ على شخصية الأمة. فالمُوصون - وكثرتُهم من الأجداد والآباء - يُفرغون في الوصايا التربوية ما تواضعوا عليه من مكارم الأخلاق، والموصَّى بهم ولهم - وجلُّهم من الأبناء والحفداء - يتلقَّوْن هذه المكارم جاهزةً ناجزة، بلا تجارب تُخاض، وبلا مصاعب تكابَدُ، كأنها شرائعُ سماوية تُلْتَزَم ولا تُناقش. فإن لم يلتزموها على سبيل البرِّ بمن ربَّوْهم، نقلوها إلى مَنْ بعدهم على سبيل الإخلاص للحق، وأداءِ الأمانة، واستمرار الترابط التاريخي.

قد تقول: ألا تنطوي الوصية الاجتماعية على كثيرٍ من هذه الأفكار والأهداف؟ فما الذي يميزُ التربوية من الاجتماعية؟ ولماذا لا تُجعل إحداهما بعضَ الأخرى؟

والجواب أن مقاصد الوصية الاجتماعية لا تختلفُ إلا بعضَ الاختلاف عن مقاصد الوصية التربوية. غير أن الاجتماعية قد يصنعُها كبارٌ لكبار، أمَّا التربويةُ فلا يصنعُها إلا كبارٌ لصغار، أو آباء لأبناء، أو رجالٌ لأطفال. فهي تقومُ بما تقوم به وزارة التربية من تهذيب الناشئة، والاجتماعيةُ تنهض بما تنهضُ به وزارةُ التعليم العالي أو وزارة الشؤون الاجتماعية من تعليم البالغين، ورعاية

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٨.

الكهول. فلا اختلافَ في الأفكار والمقاصد، ولا فيمن يُوصون بهذه أو بتلك؛ وإنما الاختلاف فيمن تُوَجَّه إليهم الوصايا.

ولا يذهبنَّ بك الظنُّ إلى أن تشبيه الوصايا التربوية بالشرائع يعني أنها مطَّردة الأحكام كقوانين الطبيعة والفلك. فما يُوصي به العالم المتزلِّف يعارض ما يوصي به المتعفِّف، ووصيةُ الشحيح تناقض وصية السخيّ،غير أن للوصايا، على اختلافها، عللاً تسوِّغها، وحججاً تظاهرها. وفي الاختلاف تنويعٌ وتلوينٌ ورُخَصٌ وذرائع لا تجمل الحياةُ إلّا بها.

حينما حضرت الوفاةُ عبدَ الله بن شدَّاد [ت: ٨١هـ] أوصى ولَدَه محمَّداً وصيةً مطوَّلة، نتخيَّر منها ما يتَّصل بالمال، ثم نقرنُ كلامَه بكلام غيره لنثبتَ أن الوصايا قد تختلفُ في المعاني وتأتلفُ في المقاصد، وقد تتعارضُ في المواقف، ولا يُفضي التعارض إلى تناقض، لأن لكلِّ موقف حالةً تقتضيه.

أوصى ابنُ شدَّاد ولدَه أن يسْخُوَ بما آتاه الله من ثراء، وأن يخزنَ ما انتهى إليه من أسرار، على أن يكون سخاؤُه للخير لا للفخر. فإذا افتقرَ فعليه أن يتحصَّنَ بالتعفُّف، ويأنف التزلُّفَ، ويُظْهِرَ اليسار ولو كان ذا عسرة، ويقنع بالكفاف، ولو ألِفَ الترف، فقال[1]:

«أيْ بنيّ، كنْ جواداً بالمال في موضع الحقّ، بخيلاً بالأسرار عن جميع الخلق. فإنَّ أحمدَ جود المرء الإنفاقُ في وجه البرّ، وإن أحمدَ بُخْل المرء الضنُّ بمكتوم السرّ. وكنْ كما قال قيسُ بن الخطيم:

أجودُ بمكنون التِّلادِ، وإنني ... بسرِّكَ عمَّن سالني لضنينُ
إذا جاوز الاثنينِ سرٌّ، فإنه ... بنَثٍّ وتكثيرِ الحديث قمينُ
وعندي له يوماً إذا ما ائتمنتني ... مكانٌ بسوْداءِ الفؤادِ مكينُ

أيْ بنيّ، وإن غُلِبْتَ يوماً على المال، فلا تدع الحيلةَ على حال. فإن الكريم يحتالُ، والدنيَّ عيال. وكُنْ أَحْسَنَ ما تكون في الظاهر حالاً، أقلَّ ما تكون في الباطل مالاً. فإنَّ الكريمَ مَنْ كرمتْ طبيعتهُ، وظهرت عند الإنفاد نعمتهُ...».

---

(١) أمالي القالي ٢/٢٠٢، النثّ: نشر الحديث، قمين وقمن: حري وخليق.

وأوصى المهلب بن أبي صفرة لولده الأصغر يزيد بالأناة في قطع الوعود إذا سئل، لأنه إذا استجاب فوعد السائل ثم أعجزه العُسْر عن الإنجاز رُمي بالبخل بما يملك، وبالإخلاف بما يعد. وإذا لم يعد السائل، ثم أعطاه مدح بالكرم، فالروية خير من اللهوجة على كل حال، والجود بلا وعود أشرف للمرء من الاعتذار عند الافتقار. قال المهلب(١):

«يا بني، إياك والسرعة عند مسألة بـ «نعم» فإن أولها سهل، وآخرها ثقيل في فعلها. واعلم أن «لا» وإن قبحت، فربما روحت. وإن كنت من أمر تُسأله على ثقة، فَأَطْمِعْ، ولا توجب، ثم افعل، وإن علمت أنْ لا سبيل إليه فاعتذر، فإنه من لا يعذر بالعذر بنفسه ظلم».

وأبو الأسود الدؤلي - وكان يبُخَّل - أنطقه خوفه على بنيه من ذل الفقر بوصية قصيرة حذّرهم فيها من السرف والتبذير لئلا يفضي بهم الإنفاق إلى الإملاق. فقال(٢):

«لا تجاودوا الله، فإنه أمجد وأجود. ولو شاء أن يوسع على الناس كلهم حتى لا يكون محتاج لفعل. فلا تجهدوا أنفسكم في التوسّع، فتهلكوا هزلاً».

وكان عتبةُ بن أبي سفيان إذا أزمع سفراً أوصى أولاده أن يحافظوا على النعم بالذُّخر، وأن يستزيدوا منها بالشكر، وألَّا يشغلهم نعيم الدنيا عن جنة الآخرة، والانغماسُ في الشهوة عن التطهُّرِ بالتوبة، فيقول(٣):

«يا بَنِيَّ، تلقَّوا النعم بحسن مجاورتها، والتمسوا المزيدَ منها بالشكر عليها. واعلموا أن النفوسَ أقبل شيء لما أُعْطِيتْ، فاحملوها على مطاياها إذا ركبتم، لا تسبق وإن تقدَّمت. نجا مَنْ هرب من النار، وأدرك مَنْ سابق إلى الجنة. قال الأصاغر من أبنائه: يا أبانا، ما هذه المطيَّةُ؟ قال: التوبةُ يا بَنيَّ».

وعُنيت الوصايا التربوية بصرف الأولاد عن أن يعايشوا قرناء السوء، ووجَّهَتْهم إلى مخالطة الأخيار، ممَّن نبتوا في مراتع الفضائل، ونُشِّئوا على مكارمِ الأخلاق. ولكلِّ وصية في هذا الميدان وجهة: فكثِّرُ بنُ هَراسة الكلبي - وكان من

(١) مختصر تاريخ دمشق ٢٦/ ٤٥، روحت: من الراحة، فرّجت وأراحت.
(٢) عيون الأخبار ٢/ ٣١، تجاودوا: تباروه في الكرم.
(٣) مختصر تاريخ دمشق ١٦/ ٦٤.

جلساء عبد الملك - أوصى ولدَه أن يتجنب معاشرةَ السفهاء، فإذا اضطر ولم يجد عنهم مصرفاً، فلا يحلّهم قلبه، ولا يتوقع أن يحلوه قلوبهم، وحسبهم منه افترارة الثغر، وحلاوة الحديث، أَمَّا ما وراءهما فأجلُّ من أن يبلغوه. قال كثير(١):

«أيْ بني، إنَّ من الناس ناساً يَنْقُصونك إنْ زِدتهم، وتهونُ عليهم إذا خاصَمْتَهم، وليس لرضاهم موضعٌ تعرفُه، ولا لسخطهم موضعٌ تنكره. فإذا رأيت أولئك بأعيانهم فابذلْ لهم وجه المودَّة، وامنعهم موضع الخُلصَة يكنْ ما بذلتَ لهم من المودَّة دافعاً لشرِّهم، وما منعتهم من موضع الخلصة قاطعاً لحرمتهم».

ولـمَّا كانت معاشرةُ اللئام جَرَباً يُتَّقى، وداءً يُعْدي فإن عمروَ بنَ عتبة حينما احتلم ولدُه سُفيان أوصاه أن يُؤْثر وحشة الوَحْدة على لُؤْم العشرة. وبيَّنَ له أن احتلام الغلام بدايةُ الرجولة، فعليه أن يُعطيَ الرجولةَ حقوقَها. وأوّلُ حقوقها ألا يغترَّ بالمَلَق والنفاق، فمن مدحه كاذباً إذا أرضاه، ذمَّه كاذباً أيضاً إذا أغضبه. ومن كان لسانُه رهينَ منفعته، فلا خيرَ في صحبته، قال ابن عتبة بن أبي سفيان [ت: نحو ٨٢هـ] ومعاوية عمه:

«أيّ بني، قد انقطعت عنك شرائعُ الصِّبا، فاختلطْ بالخير تكنْ من أهله، ولا تُزايلْهُ، فتبينَ منه كلِّه. ولا يغرَّنَّك مَن اغترَّ بالله فيك، فمدحَكَ بما تعلم خلافَه مِنْ نفسك، واعلم أنه، يا بني، لا يقولُ أحدٌ في أحد من الخير ما لا يعلم إذا رضي، إلَّا قال فيه مثلَه من الشرِّ ما ليس فيه إذا سَخِط. فاستأنسْ بالوحدة من جلساء السوء تسلمْ من عواقبهم، ولا تنقلْ حسنَ ظنيّ بك إلى غيره».

ويبدو أن عمراً هذا - وكان من فرسان الأمويِّين وبلغائهم - حرص حيّاً ومَيْتاً على أن يهذِّب ولده، وأنه قبل أن يقتل في الغَزاةِ التي غزاها مع ابن الأشعث، أوصى ولده وصيَّةً أخرى - وقد تكون بعض الوصية السابقة - بغَّضَ إليه فيها الإصغاءَ إلى البَذَاءِ، لئلَّا يصبَّ الناسُ في أذنيه أوضارَهم، فيعتلقَها عقلُه، ويمضغَها لسانُه، فيبوءَ بأوزار مَنْ وَزَرها، وهو منها براء. قال عمرو بن عتبة(٢):

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ٢١/ ١٤٧، شرائع الصبا: طبائع الشباب ونوازعه، تزايله: تفارقه، تبين: تبعد.

(٢) البيان والتبيين ٢/ ٣٠١، وفي مختصر تاريخ دمشق ١٦/ ٦٤ لعتبة بن أبي سفيان، الخنا: قبيح الكلام.

«نزِّه سمعَك عن استماع الخَنَا، كما تنزِّه لسانك عن الكلام به. فإن السامع شريكُ القائل. وإنما نَظَر [أي القائل] إلى شرِّ ما في وعائه، فأفرغَه في وعائِك. ولو رُدَّتْ كلمةُ جاهل في فيه لسَعِدَ رادُّها كما شَقِيَ قائلُها».

لم تكن الوصية التربوية وقفاً على الرجال، يوصي به الوالد ولده، والجدّ حفيده، وحسب. بل شاركت فيها النساء، فوصين وهن أمهات، واستوصين وهن بنات. وحفظت وصاياهن بين المأثور من فرائد البيان العربي.

روى الجاحظُ عن أبان بن تغلب [ت: ١٤٠هـ] أنه سمع امرأةً تودِّعُ ولداً لها كان على سفر، فإذا هي تشيِّعُه بوصية تهوِّن عليه كربةَ الغُربة، وتقيه سهامَ الأذى، وجوهرُ الوصية أنَّ الأم كانت تحذِّرُ ولدَها المشيَ بالنميمة، والتعرُّضَ للشتم، وتزجرُه عن سؤال اللئامِ، وخيانةِ العهد، والمكر والكيد، وتأمرُه بالسخاء في العطاء، والبُخل بالدين، والحِلم عند الغضب، وبأن يعامِلَ الناسَ بما يُحب أن يعاملوه به، فلا يظلمُ ولا يُظْلَم. فإن تهدَّى بما أَوْصَتْه به تجنَّبَ العِثار، ولم ينحرف به عقلُه الغضُّ عن وَضَحِ الطريق. وإليك نصَّ الوصية[1]:

«اجلسْ أمنحْك وصيتي، وبالله توفيقُك. وقليلُ إجدائها عليك أنفعُ من كثير عقلك: إياكَ والنمائم، فإنها تزرعُ الضغائن. ولا تجعلْ نفسك غَرَضاً للرماة، فإن الهدفَ إذا رُميَ لم يلبثْ أن ينثلم. ومَثِّلْ لنفسك مثالاً، فما استحسنتَه من غيرك، فاعملْ به، وما كرهتَه منه فَدَعْه واجتنبْه. ومنْ كانت مودَّتُه بشرَه كان كالريح في تصرُّفها. إذا هَزَزْتَ[2] فَهُزَّ كريماً، فإنَّ الكريم يهتزُّ[3] لهزَّتك. وإياكَ واللئيمَ، فإنه صخرةٌ، لا ينفجرُ ماؤها. وإياك والغدرَ، فإنه أقبحُ ما تُعومل به. وعليك بالوفاء، ففيه النماءُ. وكنْ بمالك جواداً، وبدينك شحيحاً. ومَنْ أعطي السخاءَ والحلم فقد استجاد الحُلَّة: رَيْطَتَها[4] وسِرْبالَها[5]. انهضْ على اسم الله».

---

(١) البيان والتبيين ٤/ ٧٢، إجدائها: نفعها وغناؤها، غرض: هدف، الثلمة: الفرجة في الشيء.

(٢) حرّكت وأثرَت نفسه.

(٣) يرتاح وتأخذه أريحية.

(٤) ملاءتها.

(٥) قميصها.

وأمَّا اللواتي استوصَيْنَ بوصايا آبائهن قبل أن يُبْنَى بهن فكثيراتٌ؛ منهن ابنةُ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، أوصاها أبوها أن تتجنَّب الغيرة الشديدة، واللومَ والشكوى، ورغَّبها في الاعتدال بالزينة، والإمعان في النظافة:

«يا بنيةُ، إيَّاكِ والغيرةَ، فإنها مفتاحُ الطلاق، وإياك والمعاتبةَ، فإنها تورثُ البغضة، وعليك بالزينة والطيب، واعلمي أن أزينَ الزينة الكحلُ، وأطيبَ الطيب الماءُ»[1].

وحينما زُفَّتْ هندُ بنتُ أسماء بنِ خارجة إلى الحجَّاج وصَّاها أبوها وصيّةً، توشكُ أن تكون مطابقةً للوصية السابقة في أوامرِها وزواجرها، وما تحبِّبُ وما تبغِّض، والوصيّتان كلتاهما تنطويان على طائفةٍ من الشيم العربية التي أوصتْ بها أمامةُ بنتُ الحارث ابنتها أمَّ إياس في العصر الجاهلي. قال أسماء[2]:

«يا بنيةُ، إن الأمهات يؤدّبْنَ البناتِ، وإن أمَّكِ هلَكَتْ وأنت صغيرةٌ، فعليك بأطيبِ الطيب الماء، وأحسنِ الحسن الكحلِ. وإيَّاكِ وكثرةَ المعاتبة، فإنَّها قطيعةٌ للودِّ، وإيَّاكِ والغَيْرةَ، فإنها مفتاحُ الطلاق. وكوني لزوجِك أَمَةً يكنْ لك عبداً».

٧- وصايا الخلفاء والأمراء لمربِّي أولادهم

بعد أن انساح العربُ في جنبات الأرض، أخذوا يستقرّون في بلاد لم يكن لهم بها عهد، ويعايشون شعوباً لم يجمعهم بها نَسَب ولا جوار، ويُصغون إلى لغات، لم تطرق أسماعهم، ولم تجر بها ألسنتهم لا قبلَ الفتح ولا بعدَه، فاعتصموا بالموروث من الطارئ، وبالفطرةِ من المستحدث، وبغَّضوا إلى أبنائهم مُخالطةَ الأعاجم لئلا تفسدَ فصاحتهُم بالعجمة، وتعتلق ألسنتُهم اللحنَ، غير أن الداءَ غلبَ الدواء، فاقتحم قصور الخلفاء، وأصابت عدواه أبناءهم.

ذكر المؤرخون أنَّ الوليد بنَ عبد الملك كان لحَّاناً، حتى إنه قال[3]، وهو على المنبر: «يا أهلُ المدينة» بضم اللام، وقرأ: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةُ﴾ بضم

(١) البيان والتبيين٢/ ٩١.
(٢) الأغاني ٢٠/ ٣٦٣.
(٣) أصول النحو للأفغاني/ ١٢.

التاء. فقال عمر بن عبد العزيز - وكان تحت المنبر -: «يا ليتها كانت القاضيةَ عليك وأراحتنا منك». ولحنُ الوليد غمَّ أباه عبد الملك بعد أن ولاه العهد، فحار فيما يصنع ليغسل لسانه من وضر اللحن.

كان على الخلفاء والأمراء - وكلُّهم من الأقحاح الفصاح - أن يدرؤوا اللحن عن أبنائهم بوسيلتين: أُولاهما أن يرسلوا أبناءَهم إلى البادية ليترشَّفوا الفصاحةَ من منابعها الصافية.

والثانيةُ أن يستقدموا فصحاءَ المعلمين إلى قصورهم ليزقُّوا أولادهم كما تُزَقُّ فراخُ الطير. والثانية أكرمُ وأسلم، فاستقدموا المربِّين، وأَوْصَوْهم وصايا حدَّدوا فيها طرائقَ التربية ومناهجَها وأهدافها.

ومن ينظرْ في هذه الوصايا يجدْ أن محاربة اللحن بالنحو لم تكن إلا وسيلةً لغاية، أما الغايةُ فهي أن تربى الجسوم والعقول تربية متكاملة فيثقَفَ الأولادُ علومَ الدين والدنيا، وتُراضَ أبدانُهم بالسباحة كما تراضُ ألسنتُهم بالفصاحة، وتعمر قلوبُهم بالكتاب والسنة كما تُصْقَل نفوسُهم بمكارم الأخلاق، فيقبس التلاميذُ الصغارُ فضائلَ المعلِّمين الكبار بالمعايشة العملية، والسلوك اليومي، لا بالنصح النظري.

أوصى الحجّاج بنُ يوسف معلِّم أولاده، فقال:

«علّم ولدي السباحة قبل الكتابة، فإنهم يصيبون من يكتُب عنهم، ولا يصيبون من يسبح عنهم»[(١)].

ونهج عتبةُ بن أبي سفيان فيما أوصى به مؤدِّب أولاده منهجاً متكاملاً، ينطوي على أمور هامة: أوّلُها أن المربيَ قدوةٌ يعلِّم بسلوكه أكثر ممّا يعلِّم بلسانه. والثاني أن أساس التعليم القرآنُ الكريم، والحديث الشريف والشعرُ العفيف، فمتى ثقفها الأولادُ لُقِّنوا سِيرَ العلماء والحكماء. والثالثُ التدرُّجُ والإتقان لئلا يثقل العلم الكثير على الأذهان الصغيرة. والرابعُ أخذ الأولاد بالحزم. وتجنيبهُم مخالطةَ البنات. وإليك نص الوصية[(٢)]:

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ١٧٩.

(٢) البيان والتبيين ٢/ ٧٣، بري: عطائي وإحساني.

«ليكن أوَّلَ ما تبدأ به من إصلاحِك - بنيَّ - إصلاحُك نفسَك، فإن أعينَهم معقودة بعينك، فَالحسَنُ عندهم ما استحسنْتَ، والقبيحُ عندهم ما استقبحْتَ. عَلِّمْهم كتابَ الله، ولا تكْرِهْهم عليه، فيملُّوه، ولا تتركْهم منه، فيهجروه، ثم روِّهم من الشعر أعفَّه ومن الحديث أشرفَه. ولا تُخْرجهم من علمٍ إلى غيره حتى يُحكموه، فإنَّ ازدحامَ الكلام في السمع مَضِلَّةٌ للفهم. وعلِّمْهم سِيَرَ الحكماء وأخلاق الأدباء. وجنِّبْهم محادثةَ النساء، وتهدَّدْهم بي، وأدِّبْهم دوني. وكنْ لهم كالطبيب الذي لا يَعْجَلُ بالدواء حتى يعرفَ الداء، ولا تتكل على عذري، فإني قد اتَّكلت على كفايتك، وزِدْ في تأديبهم أزِدْكَ في برِّي، إن شاء الله».

وإذا استقرأت وصايا الخلفاء فوجدتها مختلفة في الآراء فاعلم أنها تمثل من أوصوا بها. فعبد الملك بن مروان - وكان له تسعةَ عشرَ من البنين والبنات - كان أحرصَ الأمويين على الرجولة، ومكارم الأخلاق، وشيم العرب، فأوصى الشعبي حينما ندبه لتأديب أولاده وصيةً جاء فيها(١) :

«علِّمْهم الصدق كما تعلِّمُهم القرآن. وجنِّبهم السفلة، فإنهم أسوأُ الناس رِعَةً، وأقلُّهم أدباً وعلماً، وجَنِّبهم الحشَمَ، فإنهم لهم مَفْسَدة.....».

وعمرُ بن عبد العزيز - وهو مَنْ هو في الورع وقوة الإيمان- كان أحرصَ الناس على أن يُنشِّئَ أولادَه على التقوى ورسوخ العقيدة، ومجانبة النفاق والرياء، والابتعاد عن مواطن اللهو والغناء، فقال فيما أوصى به سهلَ بنَ صدقة مؤدِّب ولده(٢) :

«وليكنْ أولَ ما يعتقدون من أدبك بغضُ الملاهي التي بَدْؤُها من الشيطان، وعاقبتُها سخطُ الرحمن، فإنَّه بلغني عن الثقات من حملة العلم أن حضورَ المعازف، واستماعَ الأغاني، واللهجَ بها يُنبت النفاق في القلب كما يَنْبُتُ العشبُ على الماء....».

وأجود ما ظفرنا به من وصايا الخلفاء التربوية وصيةٌ مطولةٌ لهشام بن عبد الملك، تضمَّنَتْ منهاجاً نظرياً وعملياً متكاملاً، رسمَ فيه الخليفةُ لسليمان الكلبي المؤدِّب خطةً مفصَّلة، ذكر فيها العلومَ القمينة بالتعليم، وحدَّد الخطةَ

(١) الدراري في ذكر الذراري/٣٨ الحشم: الخدم.
(٢) مختصر تاريخ دمشق ١٠/٢٢٦.

الصالحة للتدريس، والبيئةَ التي يُربَّى فيها الغلام، ومَيَّزَ مَنْ يَنْصَح بمخالطتهم ممَّن يُحذِّر من مُقاربتهم، ولم يغفل عن ذكر الزِّيّ الذي يصلحُ للتلميذ، والهيئة التي تليقُ به، وطريقة الركوب إذا اعتلى الجواد، وأسلوب التأديب إذا جنح. وختمَ الوصيةَ بوعد يشجِّع المدرسَ على الجدِّ في العمل، والإخلاص في الأداء، إذْ جعل المكافأة على قدْر الكفاءة. وقاسَ الكفاءةَ في التعليم والتأديب بمقدار ما يُحْرِزُ التلميذُ من علم وأدب. وإليك نصَّ الوصية كما رواها ابنُ عساكر[١]:

«إنَّ أوَّلَ ما آمُرك به أن تأخذَه بكتاب الله، وتُقرئه في كل يوم عَشْراً، يحفظ القرآن حِفْظَ رجل يُريد الكَسْبَ به. وروِّه من الشعر أحسنَه، وتخلَّلْ به في أحياء العرب، فخذْ من صالح شعرهم من هجاء ومدح. فإنه ليس من قوم إلا وقد هُجوا ومُدحوا. وروِّه جماهيرَ أحياء العرب، ثم تخلَّلْ به مغازيَ النبيّ ﷺ، وحفظَ مَنْ كان معه، وحُسْنَ بلائهم. وبصِّره طرفاً من الحلال والحرام والخطب، وما يحتاجُ إليه في قَدْره وموضعه.

ثمَّ أَجْلِسْه للناس في كلِّ يوم، وأدخلْ عليه أشرافَ قريش والعربَ وعِلْيَة القوم. وأطيبوا لهم الطعامَ وعجِّلوا بالغداء، فمن أحبَّ بعد الغداء أقامَ، ومن أحبَّ أن ينصرفَ فإن للناس حوائجَ. وأدخلْ عليه أهلَ الفقه والدين، فإنهم إذا خرجوا أذاعوا ذلك عنه.

وإذا سمعتَ عنه الكلمةَ العَوْراء[٢]، فاصمتْ عنها، فلعلَّ القوم لم ينتبهوا إليها، فإذا خرجوا من عنده فانقله منها إلى غيرها، وخبِّرْه بفسادها.

ثم انظرْ إليه في بدنه، فَمُرْهُ، فليستنَّ عَرْضاً[٣]، وليحلقْ شعره، تغلظْ قَصَرتُه[٤]، وعلِّمه شعرَ حاتم يَسْخُ ويمجدْ. ولا يجعلن ثيابه طوالاً، فإنها لباس النوكى[٥]، ولا سيما أبناء الملوك. ولا تحملنَّه على سرج صغير، فتبدو منه ألْيتاه، وإن ذلك فعل الفساق. ولا تُجلِسْه مع حشَمه، فإنهم له مَفْسَدة، وإياك

---

(١) المصدر السابق ١٠/ ١٦٣.
(٢) القبيحة.
(٣) العرض: الأراك.
(٤) أصل عنقه.
(٥) الحمقى.

والسوقةَ، فإنهم أسوأُ شيءٍ آداباً. وخُذْ خَدَمه باللين وطلاقة الوجه على بابه، والبشاشة بالناس، والتألُّف بهم.

وإذا أعطيتم فأعطوا حَمَلةَ القرآن وحَمَلةَ العلم وأهلَ الفضل، فإنكم تُؤْجَرون على تقريبهم، ويحمدكم الناس على أعطياتهم، إلّا أن يكونوا في سبب تجدُه، أو وسيلة تكون لأحدهم يَقْضي ذمامه. وابسطوا أيديكم بالفضل ووجوهكم بالبشر، فإنكم ملوك، والناسُ سوقة، وإنهم يطؤون أعقابكم بنازعِ الفضل ولينِ الجناح.

ولا يخرجَنَّ إلّا معتمّاً، ولا يركبنَّ محذوفاً ولا مهلوباً[١]، ولا تعقدنَّ له ذنبَ دابة إلا في لثق[٢]، ولا يسيرنَّ ملتفتاً ولا طامحاً. وإياك أن تكتم عَيْبَه، فيؤدِّيَ لك ذلك غيرُك، فأنزِلَ لك عمَّا يسرُّك إلى ما يضرُّك. فإنْ قصَّر عن شيء فيما أمرتَه به في أدبه، أو تقاعس لك لكزَّةٍ[٣] في نفسه، أو قدرة، فأدخلْ عليه بعضَ أهله حتى يجرَّه برجله إلى مجلس أدبه.

خُذْه بهذا كلِّه، وزِدْه من عندك ما استطعتَ، فإني قد تبيَّنْتُ عقلَه اليوم، وبعد اليوم، فإن ازداد خيراً إلى ما كان عليه رُئي أثرُ أمير المؤمنين عليك، وإن كانت الأخرى فلا تَلُمْ إلا نفسك. وقد أجريتُ لك في كل شهر ألفَ دينار».

٨- الوصية الجامعة

بين الوصايا المتحدِّرة إلينا من العصر الأموي طائفةٌ، أفرغ فيها أصحابها خلاصةَ ما جرَّبوا من شؤون الحياة واستعرضوا، وزبدةَ ما احتلبوا من أخْلافها ومخَضوا، فصعب أن نسلكها في صنف من سبعة الأصناف السابقة التي ذكرناها. وعلَّةُ الصعوبة اشتمالُ هذه الوصايا على موضوعات كثيرة، تداخلت وتكاملت، أو أفضى بعضها إلى بعض. فيها من الوصية الدينية تعظيمُ الدين وأهله، ومن الاجتماعية الدعوةُ إلى التراحم والتواصل، ومن الوصية السياسية الدهاءُ وحصافةُ الرأي، ومن الإدارية التنظيمُ وحسن التصرُّف، ومن الوصية العسكرية القيادة الحازمة، وإيثارُ المكيدة على القوة، ومن التربوية التعليم

(١) فرساً مقطوع الذنب ومثله مهلوب.
(٢) الماء والطين يختلطان.
(٣) لانقباض وضيق.

والتهذيب، فهي تنتمي إليهن جميعاً، وتستمد أفكارها منهن جميعاً، لكنها ليست واحدة منهن، ولهذا أفردناها، وسمَّيْناها الوصيةَ الجامعة.

من هذا النمط وصِيَّة للمهلَّب بن أبي صفرة، واسمهُ ظالم بُن سَرَّاق الأزديّ العتكي. كان المهلب أميراً جواداً شجاعاً فصيحاً، أطراه عبدُ الله بن الزبير بقوله: «هذا سيّدُ أهل العراق». وليَ البصرةَ لمصعب بن الزبير، فَندبَه لقتال الأزارقة، وكانوا من أعْتى الخوارج، فجدَّ في قتالهم حتى استأصلَهم من العراق. فلمَّا غلبَ الأمويّون الزبيريِّين اصطنعوا المهلَّب، وولَّاه عبدُ الملك بن مروان خراسانَ سنة ٧٩هـ، فحكمها أحزمَ حكم، وفيها قَضَى نحبه سنة ٨٣هـ. وحينما حضرتْه الوفاةُ ودَّعَ أبناءَه بوصيةٍ جامعة، تُعَدُّ من عيون النثر العربي في العصر الأموي.

في مطلع الوصية أخذَ المهلَّبُ من الوصيةِ الدينية تَقْواها، وفحوى التقوى الطاعةُ الخالصة لله. ومُجانبةُ المعاصي، فَمَن ارتكبَ معصيةً فقد ركبَ مَطيَّةً لا عنانَ لها، تسيرُ على هواها، ولا تُنيخ إلَّا في جهنم. وأخذَ من الاجتماعية التواصلَ والتكافلَ، فأمر بنيه بصلةِ الأرحام، والبرِّ بذوي القربى، والإجداء قبل الاستجداء، وبفتح الأبواب لذوي الحاجات، وإغلاق الأسماع عن إقذاع الرَّعَاع.

ثم قبسَ من التربوية مكارمَ الأخلاق، وأكرمُها الصدقُ في القول، والإخلاصُ في العمل، والأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر، واصطناعُ العرب عامَّةً لأنهم معادن الشرف والوفاء، وتوقير الكبار منهم خاصَّة، والرفقُ بالصغار على نحوٍ أخصَّ، لأن في التوقير والرفق سرَّيْنِ من أسرار النبل الإنساني.

ومن التربوية انتقل إلى العسكرية، فحذَّر بنيه من الاندفاع والتهوُّر، وآثر عليهما التصبُّر والتربُّصَ ونصحَ لهم بإعمال العقل قبلَ استلال السيف.

وختمَ الوصيَّةَ بالرجوع كرَّةً أخرى إلى الوصيتين الاجتماعية والتربوية، فاستلهمَ من الأولى التنويه بالتناصر، ومن الثانية الترغيبَ في حفظ الكتاب والحديث، ودراسةَ الشريعة، والتأدُّبَ في المحاورة، والإعراضَ عن مجالسة السفهاء، والكفَّ عن الخوض فيما يهرفون من فاحش القول. وإليك نصَّ الوصية[١]:

(١) التعازي والمراثي/ ١٣٣.

«أُوصيكم بتقوى الله وصِلةِ الرحم، فإن تقوى الله تُعْقِب الجنةَ، وتُنْسِىءُ[١] في الأجل، وتُثري المال، وتجمع الشملَ، وتكثِّر العددَ، وتعمر الديارَ، وتعزُّ الجانب. وأنهاكم عن معصيةِ الله، فإنها تُعْقب النارَ. وإنَّ قطيعة الرحم تورث القلَّةَ والذِّلَّةَ، وتفرِّق الجمعَ، وتَذَرُ الديارَ بلقعاً[٢]، وتُذهب المال، وتُطمع العدوَّ، وتُبدي العَوْرة.

يا بَنيَّ، قَوْمكم قَوْمكم، إنه ليس لكم عليهم فضلٌ، بل هم أفضلُ منكم، إذْ فضَّلوكم وسوَّدوكم، ووطَّؤوا[٣] أعقابكم، وبلَّغوا حاجاتِكم لما أردتم، وأعانوكم، فلهم بذلك حقٌّ عليكم، وبلاءٌ عندكم، لا تؤدُّون شكرَهُ، ولا تقومون بحقِّه. فإن طلبوا فأَطْلِبوهم، وإن سألوا فابتدِئوهم، وإن شتموا فاحتملوهم، وإن غَشُوا أبوابكم فلتُفْتَحْ لهم، ولا تُغلق دونهم.

يا بَنيَّ، إني أحبُّ للرجل منكم أن يكون لفعله الفضلُ على لسانه، وأكره للرجل منكم أن يكون للسانهِ الفضلُ على فعله.

يا بَنيَّ، اتَّقوا الجوابَ وزلَّةَ اللسان، فإني وجدتُ الرجل تعثر قدمُه فيقوم من زلته، وينتَعِشُ منها، ويزلُّ لسانه، فَيُوبقه، وتكونُ فيه هلكته.

يا بنيَّ، إذا غدا عليكم رجلٌ، أو راح، فكَفَى بذلكم مَسْألةً، وتذكرةً بنفسه. يا بنيّ ثيابُكم على غيركم أحسنُ منها عليكم، ودوابُّكم تحت غيركم أحسنُ منها تحتكم. يا بنيَّ، أَحِبُّوا المعروفَ، واكرهوا المنكرَ، واجتنبوه، وآثِروا الجودَ على البخل، واصطنعوا العربَ، وأكرموهم، فإن العربيَّ تَعِدُه العِدَةَ، فيموت دونك، ويشكر لك، فكيف بالصنيعة إذا وصَلَتْ إليه في احتماله لها، وشكره والوفاء لصاحبها!؟

يا بنيَّ سوِّدوا كبارَكم، واعرفوا فضل ذوي[٤] أسنانِكم تَعْظُموا بهم. وارحموا صغيرَكم، وقرِّبوه، وأَلْطِفوه، واجبروا يتيمكم، وعُودوا عليه بما قدرتم، وخذوا على أيدي سفهائكم، وتعاهدوا فقراءَكم وجيرانكم بما قدرتم عليه، واصبروا للحقوق ونوائب الدهر.

---

(١) تؤخر.
(٢) خالية.
(٣) كثروا أتباعكم وقدموكم عليهم.
(٤) كبار السّن.

وعليكم في الحرب بالأَناةِ والتُّؤَدة في اللقاء، وعليكم بالتماس الخديعة في الحرب لعدوكم. وإياكم والنَّزَقَ والعجلةَ، فإن المكيدةَ والأناة والخديعة في الحرب أنفعُ من الشجاعة، واعلموا أن القتالَ والمكيدة مع الصبر، فإذا كان اللقاءُ ترك[1] القضاء: فإن ظفِر امرؤٌ، وقد أَخَذَ بالحزم قال القائل: قد أتى الأمرَ من وجهه. وإن لم يظفرْ قال: ما ضيَّع، ولا فرَّط، ولكن القضاء غالبٌ. والزموا الحزمَ على أيِّ الحالتين وقع الأمر.

والزموا الطاعة والجماعةَ، وإياكم والخلاف. تواصلوا وتآزروا وتعاطفوا، فإن ذلك يثبت المودَّةَ، وخذوا فيما أُوصيكم به بالجدّ والقوة والقيام به، تظفروا بدنياكم ما كنتم فيها، وبآخرتكم إذا صرتم إليها، ولا قوةَ إلا بالله.

وليكنْ أوَّلَ ما تبتدئون به إذا أصبحتم تعلُّمُ القرآن والسنن والفرائض، وتأدَّبوا بآداب الصالحين من قبلكم من سَلَفكم، ولا تُقاعِدوا[2] أهَل الدعارة والريبة، ولا يطمعْ في ذلكم منكم طامع. وإيَّاكم والخفَّةَ في مجالسكم وكثرةَ الكلام، فإنه لا يسلمُ منه صاحبُهُ، وأدُّوا حقَّ الله عليكم، فإني قد أبلغت إليكم في وصيَّتي، واتخذتُ لله الحُجَّةَ عليكم».

د- من سمات الوصايا الفكرية والفنية

إذا ضربت نصوصَ الوصايا على محكِّ النقد وجدتها ضرباً من المواعظ، إلا أن الواعظ يأمر وينهى، ويُرغِّب ويرهِّب مَنْ يخاطب، وهو صحيح معافى، ويتوقع أن يشهد آثار ما وعظ به فيمن وعظ. والموصي يقول ما يقول - في أكثر الوصايا - وإحدى رجليه في الدنيا، والأخرى تتجه إلى الآخرة، ثم يمضي، فلا يدري أصدع الموصَّى بما سمع أم أقلع، وأخذ بالنصح أم نبذ.

إن الوصية عند التحقيق ليست إلَّا موعظة لخَّصت تجربة سياسية، أو خبرة عسكرية، أو علاقة اجتماعية، في نصيحة موجزة، ولَمَّا كان ذلك كذلك فلا يأخذنَّك العجبُ إذا وجدت سمات الوصايا الفكرية والفنية تطابق أو تقارب سمات المواعظ. فما أبرزُ هذه السمات:

(١) كذا في التعازي وفي الكامل في التاريخ/ ٦٣٢ (نزل) وهو الصحيح.
(٢) تجالسوا.

١- الفكر الإسلامي

مهما يكن نوعُ الوصية، سواء أكانت دينيةً أم اجتماعية، سياسيةً أم عسكرية، فإن أفكارها تَظَلُّ مُسْتوحاةً من الفكر الإسلامي: ما نزل به الوحيُ، وما ورد في الحديث، وما استُنبط من السيرة النبوية.

وعلَّةُ ذلك عندنا أنَّ العصر الأموي بقى إسلاميَّ الطابع، تتوهَّجُ فيه أنوار النبوة، وأن المسلم أيّاً كانَ ظلّ مشدوداً إلى ماضيه القريب عقلاً وعاطفة. أَضِفْ إلى ذلك أن قُرْبَ الخروج من الدنيا يردُّ إلى المُوصي ما فاته من الدين، حتى إنه إذا كان فيه صَلَفُ الحجَّاج بن يوسف، أو سَرَفُ يزيد بن معاوية، فإنه متى أحسَّ أنه راحلٌ رحلَ عنه صَلَفُه وسرفهُ، وقهر إيمانهُ بقوة الخالق اغترارَه بقوة المخلوق، فارتدَّ عمَّا جنح واجترح، وعادَ إنساناً سويّاً، يوصي بما يرضي الله عنه.

إن الفكر الديني يتجلَّى فيما اقتبس المُوصون من الكتاب والسنة مرةً بالمعاني والمباني، ومرَّةً بالمعاني وحدها.

ومن هذا النمط وصية أوصى بها سليمانُ بن صرد جندَه من «التوابين» قبل أن يلقى بهم جيشَ الأمويين في معركة عين الوردة [سنة: ٦٥هـ]، ولَمَّا كان ابنُ صرد يتوقَّعُ أن يُقتل في المعركة، فإنه عهد بالقيادة من بعده إلى المسيّب بن نجبة، ثم أوصى جنده وصية، جاء فيها[(١)]:

«فإذا لقيتموهم فاصدقوهم، واصبروا، إن الله مع الصابرين. ولا يولِّينَّهم امرؤٌ دُبره إلَّا متحرِّفاً لقتال، أو متحيِّزاً إلى فئة. لا تقتلوا مُدْبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيراً من أهل دعوتكم إلا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه... رحم الله امرأً صدق ما عاهد الله عليه».

إنك تستطيع أن تردّ كل عبارة من وصية ابن صرد إلى آية في كتاب الله[(٢)].

---

(١) تاريخ الطبري ٧/ ٧٤.

(٢) ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٤٦]، ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٨/ ١٦]، ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢٣].

٢- الإفصاح عن طباع الموصِّي والموصَّى

من سمات الوصايا، على إيجازها، أنها وثائقُ تاريخية، تصوِّر سياسةَ الدولة الأموية، وتُفْصِحُ عن تفكير الموصِّي، وتكشفُ عن طبيعة الموصَّى. فتشهدُ للذكي بالدهاء، وتفضح ما في السفيه من رعونة. وأَقْدَرُ الوصايا الأموية على الإفصاح والفضح ما أوصى به معاويةُ بن أبي سفيان ولدَه يزيدَ.

من بداية الوصية يدرك القارئُ أن معاوية كان يعلمُ علم اليقين أنه وَلَّى الخلافةَ مَنْ لا يستحقُّها، وأنه حتى بعد أن ذلَّلَ ليزيدَ الصعاب وأخضعَ الرقاب، وجنَّبه عداوةَ المعارضين، يرحلُ عن الدنيا، وفي نفسه قلقٌ يؤرِّقه، فنصح لولده بملاينةِ الرعية، واحتمالِ الانتقاد، ومُجانبة البَطْش، فقال[١]:

«يا يزيدُ، اتَّقِ الله، فقد وطأتُ لك هذا الأمرَ، ووَلِيتَ من ذلك ما وَلِيتَ، فإن يك خيراً، فأنا أسعد به، وإن كان غيرَ ذلك شقيتُ به. فارفقْ بالناس، وأَغمضْ عمَّا بلَغَك من قول تُؤْذَى به، وتُنْتَقص به».

وأدلُّ ما يدلُّك على نباهة الوالد وفهاهة الولد، أن معاوية توقَّع ما وقع، وصدق حدسُه، وأن يزيد عجز عن أن يُدرك الوقائع، وتبلَّد حسه، فلم يأتمر بأمر أبيه، ولم يَرَ خيراً من رأيه. لقد أوصى معاوية ولده بأن يحافظ على المناسك والشعائر، وأن يحضرَ الصلاةَ، لأن حضورها يُعلي مكانته، ويدفع عنه ما رُمي به، فقال في الوصية:

«واحضر الصلاةَ، فإنك إذا فعلت ما أُوصيك به عرف الناسُ لك حقَّك، وعظمتْ مملكتُك، وعظمْتَ في أعين الناس».

غير أن الولد جاهرَ بالمعصية، وتمادى في الضلال، فبغَّض نفسه إلى الناس، ومزَّقَتْه ألسنةُ التأثيم والتفسيق. روى السيوطي[٢]: «أنَّ عبد الله بن حنظلةَ الغَسِيل قال: والله ما خَرَجْنا على يزيدَ حتى خفنا أن نُرْمى بالحجارة من السماء. إنه رجل ينكحُ أمَّهاتِ الأولاد والبناتِ، والأخواتِ، ويشربُ الخمر، ويَدَعُ الصلاة».

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٢٢٩.
(٢) تاريخ الخلفاء/ ١٩٥.

ولا تستطيعُ أن تضع معاوية الذي توفي [سنة: ٦٨٠ م] في موضعه من دُهاة السياسة حتى تقرنه بغيره من ساسة العالم، ومنهم (نقولو مكيافلي) [توفي سنة: ١٥٢٧م] الذي يعدُّه ول ديورانت أدهى الدهاة في عصر النهضة. لقد كرر مكيافلي في كتابه الأمير رأي معاوية بعد ثمانية قرون ونصف، فقال(١): «آيةُ الأمراء الأذكياء أنهم يحافظون على نقاء الشعائر الدينية، وعلى احترام الأنبياء. وآيةُ الأغبياء أنهم يجهلون هذه الحقيقةَ، فيجابهون الشعبَ بفرض ما يكرهُ، وانتزاع ما يحبُّ، ويحاولون أن يَهْدموا صَرْحَ الدين». وقال أيضاً: «مِن النصح الخالصِ لوجه الله القادر على تثبيت دعائم الملك أنْ يلبسَ الحاكم لبوسَ الدين، وأن يظهرَ به في كل محفل. وليس من الضروري أن يكون جوهرُه كمظهره... إن في مقدور كلِّ إنسان أن يرى مظهرَك، ولكنْ قلَّ من الناس مَنْ يعرفُ حقيقةَ مَخْبَرِكَ».

٣- تصويرها الأحوال السياسية والاجتماعية

ثالثةُ السمات الفكرية أن الوصايا تُعدُّ صوراً مصغَّرة للأحوال السياسية والاجتماعية في العصر الأموي، لأنها تلخِّصُ آراء الأعلام الذين حرَّكوا الأحداث، وتؤرِّخ التجارب التي تمرّس بها حكماء العصر وعقلاؤه.

لقد أحيا الخلفاء في بداية العصر الأموي الصراعَ القبلي، والنزاعَ الإقليمي، فظاهروا قوماً على قوم، وقُطراً على قطر. وبقيت هذه السياسة متَّبعةً حتى آخر العصر، حتى إن خصوم الأمويين من الشيعة والعباسيين، سلكوا المسلك نفسه، وحاربوهم بالسلاح نفسه، وأضافوا إليه الاستعانة بالعجم على العرب.

أرسل الإمام إبراهيم بن محمد [ت: ١٣١هـ] -وكان زعيم الدعوة السرية- أبا مسلم الخراساني واسمُه عبد الرحمن بن مُسلم إلى خراسان للدعوة إلى أهل البيت مُشيَّعاً بالوصية التالية كما رواها الطبري(٢):

(١) الوجيز في قصة الحضارة ٦/ ١٢٥.

(٢) تاريخ الطبري ٩/ ٧٦، ورأى د. يوسف العش أن قوله "لساناً عربياً" تصحيف "إنساناً مريباً" ورأى منقح الكتاب أن (عربياً) تصحيف "غريباً" وأن كلمة (لسان) تعني (داعية) وأن معنى العبارة "داعية غريباً عن الدعوة" انظر تاريخ عصر الخلافة العباسية/ ٢٥.

«يا عبد الرحمن، إنك رجلٌ منَّا أهل البيت، فاحتفظْ وصيتي، وانظرْ هذا الحيَّ من اليمن، فأكرِمْهم، وحُلَّ بين أظهرهم، فإن الله لا يُتمُّ هذا الأمرَ إلَّا بهم. وانظر هذا الحيَّ من ربيعةَ، فاتهمهم في أمرهم، وانظر هذا الحي من مضر، فإنهم العدوُّ القريبُ الدار، فاقتل مَنْ شككت في أمره، ومن كان في أمره شبهة، ومن وقع في نفسك منه شيءٌ. وإن استطعت ألّا تدعَ بخراسان لساناً عربيّاً فافعل، فأيُّما غلامٍ بلغ خمسة أشبار تتهمه، فاقتله....».

ونصوص الوصايا، على إيجازها، تعبِّرُ تعبيراً غير صريح عمّا كان يجري في المجتمع العربي من اصطراع الدين والدنيا، والزهادة والرغادة، والشظف والترف، والجدِّ واللهو، والعلم والجهل. والكثرةُ الكاثرة من الوصايا تغلِّبُ الدينَ والزهادةَ، والشظفَ، والجدَّ والعلم، على أضدادها، لأنها تمثل آراءَ أصحابها في أواخر الأعمار لا في بداياتها؛ وفي هذه المراحل تنطفئُ العواطف، وتتوهَّج الحكمة، ويسيطر العقل على القلب. وأحفلُ الوصايا بهذا النوع من التصوير المتقشف وصايا عمر بن عبد العزيز، ومنها وصية أوصى بها ولده عبد الملك، جاء فيها(١):

«وأكثر ذِكْرَ الموت الذي لا تدري متى يغشاك، وذِكْرَ يوم القيامة وهوله وشدته، فإن في ذلك عوناً حَسَناً على الزهادة... واحذر نفسك، واتهمها، ولا تحمِلْها على الرخاء والدَّعة، واحملْها على مكروهها، وأكثر الصمت، فإنه زِعَةٌ من الخطايا.. ولا تستحق العلم حتى تؤثره على الجهل، ولا الحقَّ حتى تذر الباطل».

٤- الزهد في الرسوم والصنعة

في بداية هذا الباب ذكرنا أن الوصية في عصر النبوة والخلافة الراشدة بزَّت الوصية الجاهلية إذ ارتقت أفكارُها، وتطور شكلُها، واكتملت رسومُها الفنية، وأبرزُ هذه الرسوم: البدءُ بالبسملة والحمدلة. وتسمية الموصي والموصَّى، وتوثيقُها بالشهود، وخاتم الموصّي إذا كانت الوصية مكتوبة.

والقارئُ يتوقَّعُ كما توقَّعنا أن يضيف العصرُ الأموي إلى الرسوم الموروثة

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٥/ ١٩٩، زعة: كفّ، حائل.

رسوماً أخرى، تزيد الوصيَّةَ تدقيقاً وتوثيقاً، وكمالاً وجمالاً. غير أنه يفاجَأُ كما فوجئنا بأن هذه الرسوم أخذتْ تتأخر في العصر الأموي، ولا تتطوَّر، وتضمر ولا تزدهر، إمّا لأن الرواة أهملوا المظهر، وأثبتوا الجوهر، وإمَّا لأن المُوصينَ أنفسَهم شُغلوا بالمضمون الفكري عن الشكل الفني. ولإهمالِ أحد الفريقين أو كليهما بَلَغَنا القَدْرُ الأعظمُ من وصايا العصر الأموي عُطْلاً من الرسومِ جلِّها أو بعضِها.

وزهدُ الوصية في الرسوم اقترن بزهد آخر، وهو التقتير في الزينة، والميل عن الصنعة، وإيثار الترسُّل، والانسياق مع الطبع. وقصار الوصايا كانت على نبذ الحلية الظاهرة أحرص من طوالها، وما قيل في سويعات الاحتضار كان أزهد في البديع ممّا قيل على السعة. وعلة ذلك أن زينة الحياة الدنيا كلها تبهت في هذه الأوقات، فكيف لا تبهت زينة البديع؟ فإذا طالت الوصية، ودبجت على السعة، وأتيح للموصي شيءٌ من الأناة والروية سجع وجانس، وزاوج وطابق، وتأنق ونمق. ومن هذا الضرب وصية مطولة لعبد الله بن شداد، وقفناك على فقرتين من فقراتها. وفي هذه الوصية يخاطب ابن شداد ولده محمَّداً، فيقول[1]:

«أيْ بُنَيَّ، لا تزهدنَّ في معروف، فإن الدهر ذو صروف، والأيام ذاتُ نوائب، على الشاهد والغائب. فكم من راغب قد كان مرغوباً إليه، وطالب أصبح مطلوباً ما لديه. واعلم أن الزمان ذو ألوان، ومَنْ يصحب الزمان يَرَ الهوان».

٥- اصطباغ العواطف والصور بصبغة الموصي

قد يتراءى لك أنه متى بلغ الإنسانُ أرذلَ العمر فترت همَّتُه، ووهنت عزمتُه، وطغى عليه الحزنُ والتشاؤم، فبكى واستبكى، ويئس وأيأس، وأفرغ غمَّه في وصيته، فجاءتْ مشاعرُها نضَّاحةً بالألم، وصُوَرُها مسربلةً بالسواد.

قد يكون هذا الظن صحيحاً إذا زعمنا أنَّ وصايا العصر الأموي كلَّها صدرت عن عَجَزة، أقعدتْهم الشيخوخةُ، ومرضى يساورهم الموت. أمَّا إذا تذكَّرنا أن القسم الأعظم من الوصايا صدر عن قادة شجعان، وساسةٍ دهاة، وحكماء مصلحين، وأن طائفة منها كانت ترمي إلى التربية والتوجيه أدركْنا أن هذا الظنَّ باطل.

---

(١) أمالي القالي٢/ ٢٠٢، الصروف: الأحداث وتقلباتها.

الحقُّ أن مشاعر الوصايا وصورها لم تكنْ تتأثر بالحَدَث إلّا قليلاً، وأن الموت، على ما فيه من رهبة، لم يكنْ نافخَ العواطف، ولا راسمَ الصور، وأن شخصيةَ الموصي صاحبةُ الأثر الأكبر، فهي التي تقرِّرُ طبيعةَ المشاعر، وتتخيَّرُ ألوان الصُّوَر، فتأتي الوصيةُ إمَّا قانطةَ العواطف قاتمة الصور، وإما متأججةَ الانفعال، متأرِّجةَ الألوان.

فعمرُ بن عبد العزيز الزاهد العابدُ حينما أوصى ابنَه عبدَ الملك بثَّ في وصيته ما كان يساورُه من جلال الموت وأهوال القيامة، واحتقار الشهوات، فصوَّر الدنيا نُزُلاً يمرُّ به المسافر، فيستريح ساعة، ثم يرحل إلى الآخرة. ولهذا بغَّض إلى ولده الدنيا، وحذَّره أن يتخذها صديقاً أو شقيقاً، لأنها ضلالٌ باطل، والضلالُ لا يصادَق، والباطل لا يؤاخى. فقال(١):

«.. وأكثر النظرَ في دنياك التي تُذْهِبُ آخرتك ما لم تَعَاهَدْها... ثم انزل الدنيا منزلَ ظَعنٍ، فإنك مفارقُها إلى غيرها، ولن تدرك الآخرةَ حتى تؤثرها على دنياك... فلا يكوننَّ الحق عندك ضعيفاً، ولا الباطل لك أخاً وصديقاً».

أمّا عبد الملك بن مروان فإن جلال الموت لم يضعف رجولته، بل تقاوى على المرض، وغالب سكرة النزع والموت، وبثَّ في وصيَّته بقية حزمه، وحُشاشةَ عزمه، وأوصى ابنه الوليدَ وصيةً، يُخيَّلُ إليك أنها خطبةُ في معركة، لا تعزية في مأتم، إذْ راح يفجِّر مشاعرَه الغضوب، ويسوطُ بها جنبيْ ولدِه المحزون، فيحوِّله من حَمَل وديع إلى نمرٍ يتوثَّب، وفارس يتحدّى، غير مكترث بالقبر المحفور، والجثمان المتدلِّي بين شدقيه. روى ابن عساكر الوصية كلَّها، وجاء في آخرها(٢):

«ثمَّ أقبلَ على الوليدِ ابنهِ، فقال: لا أُلفينَّك إذا متُّ تجلسُ تعصر عينيْك، وتخنُّ خنينَ الأمة، ولكنْ شمِّر وَاتّزِرْ، والبسْ جلد نمر، ودَلِّني في حُفرتي، وخلِّني وشأني، وعليك وشأنَكَ، ثم ادعُ الناس إلى البيعة، فمن قال هكذا، فقل بالسيف هكذا».

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٥/ ١٩٩، تتعاهدها: تتفقدها.

(٢) المصدر السابق ٢٦/ ٣١٩، والوثائق السياسية/ ٢٩٢، وما بعد، البس جلد نمر: تنكر وأوعد، قل: افعل.